روايات مصرية للجيب

قضية الغواصة المحترقة

سلسلة الغاز بوليسية مثيرة للشباب

RASHID
WWW.DVD4ARAB.COM

١ ــ النِّيران ..

ساد هدوء محبَّب ، فى تلك الليلة من ليالى (نوفمبر) ، حيث بدا الجو دافئًا ، بخلاف المتوقَّع ، فى هذا الوقت من العام ، وأطلَّ القمر ، من خلف بعض السحب المتناثرة ، ليلقى ضوءه الفضِّىّ ، على ميناء (رأس التين) الحربى ، حيث استقرَّت غوَّاصة ساكنة ، إلى جوار رصيف الميناء ، أشارت الأصوات المنبعثة منها إلى نشاط يجرى داخلها ، استعدادًا لاشتراكها فى المناورة البحرية التقليدية ، التى تُسْهِمْ فيها كل قطع القوات البحرية تقريبًا ، كل خريف ..

وعلى رصيف الميناء ، كان مهندس الغوَّاصة ، المقدم (محمد يُسرِى) يتجه نحوها ، وهو يتبادل حديثًا مرحًا مع أحد زملائه ، قائلًا :

ــ لست أدرى لم تصرُّ تلك (البطة العجوز) على التعطُّل كلَّما حان موعد مناورة الخريف .. يبدو أنها قد صارت أميل إلى الكسل .

كان قد اعتاد إطلاق اسم (البطة العجوز) ، على غوَّاصته ، التى بدأ العمل عليها ، وهو بعد ملازم ثان ، إثر تخرُّجه من الكلية الفنيَّة العسكرية ، والتحاقه بالأكاديمية البحرية ، ثم بسلاح الغوَّاصات ، وعلى الرغم من أن زميله قد سمعه يتحدَّث عنها بذلك اللَّقب ، منذ تزاملا فى الغوَّاصة ، إلا أنه ابتسم ، قائلًا :

ــ يبدو أنها لم تَعُد تصلح للمناورة .. ما رأيك أن نذبحها ؟

ضحك (يُسرِى) ، وهو يقول :

ــ لم يَحِن أجلها بعد يا صديقى .

انتقل الاثنان إلى سطح الغوَّاصة ، وصعدا إلى بُرجها ، وسأل المقدَّم (يُسرِى) أحد جنود الغوَّاصة ، وهو يهبط إليها :

ــ ماذا هناك ؟

أجابه الجندى :

ــ يبدو أنه عطل فى التوربينات الخلفية يا سيِّدى .

عقد (يُسرِى) حاجبيه ، وهو يغمغم :

ــ عجبًا !!.. لقد فحصت ذلك الجزء بالذات أمس ، وكان يعمل على نحو جيِّد .

ابتسم زميله المقدَّم (مختار) ، وهو يقول :

ــ أنسيت أنها بطة عجوز يا صديقى ؟

هزَّ (يسرى) كتفيه ، قائلًا :

ــ ليس إلى هذا الحدّ .

اتجها معًا نحو حجرة التوربينات الخلفية ، و (يُسرِى) يستطرد :

ــ أتعلم يا صديقى ، لو أننا فى حالة حرب ، لشككت فيما أصاب تلك (البطة العجوز) ، فصحيح أنها تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا ، إلا أنها ما تزال بصحة جيدة .

ابتسم (مختار) ، وهو يقول :

ــ إنها تكفى لإغراق مدمِّرة معادية على الأقل .

هتف (يُسرِى) فى حماس :

بل خمس مدمِّرات .. إننى أمنح تلك (البطة العجوز) عناية خاصة ، تفُوق ما تحصل عليه باقى غوَّاصاتنا مجتمعة ، والجميع يعلمون أنها أكفأ قطعنا البحرية ، وأقواها ، وأخطرها .

رفع (مختار) حاجبيه ، فى دهشة مصطنعة ، وهو يهتف :

ــ إلى هذا الحدّ .

ابتسم (يُسرِى) ، وهو يقول :

ـــ أيها الخبيث .. أنت تعلم أننى على حقّ .

تشاركا فى ضحكة مرحة ، انتهت مع وصولهما إلى حجرة التوربينات الخلفية ، حيث اكتست ملامحهما على الفور بالجدّيّة ، وانهمكا معًا فى فحص المحرّكات ، والآلات ، واستغرقهما ذلك فى شدة ، تشف عن مهارتهما ، وإخلاصهما ، وحُسن خبرتهما وبراعتهما كمهندسين فى سلاح البحرية المصرية ، وعن حُبّهما الخاص لتلك (البطة العجوز) ، التى صارت لهما كالأم الرءُوم ..

وبعد ربع ساعة تقريبًا ، غمغم (يُسرِى) فى توتُّر :

ـــ اللعنة !

رفع (مختار) عينيه إليه ، وسأله فى قلق واهتمام :

ـــ ماذا هناك ؟!

أشار (يُسرِى) إلى جزء من أجزاء أحد المحرّكات ، قائلًا فى قلق :

ـــ هذا الجزء يبدو كما لو أنه قد انتزع بفعل فاعل ، فمن المستحيل أن يدور حول نفسه هكذا ، دون جهد كبير .

مال (مختار) نحو ذلك الجزء ، يفحصه فى اهتمام ، وغمغم فى توتُّر :

ـــ يبدو أن أحدهم قد انتزعه لغرض ما ، ثم أعاده إلى مكانه دون إحكام .

هتف (يُسرِى) فى انفعال :

ـــ السؤال هو لماذا ؟

وراح يدير ذلك الجزء فى اهتمام بالغ ، وقد تولّاه مزيج من القلق والشّكّ ، إلى أن هتف فجأة :

ـــ (مختار) .. هناك جسم ما ، أسفل ذلك الجزء .

خفق قلب (مختار) فى قوة ، وهو يقول :

ـــ جسم ما ؟.. أى جسم هذا ؟

هتف (يُسرِى) :

ـــ لست أدرى .. إنه يبدو كما لو كان ..

بتر عبارته بغتة ، وكأنما يبحث عن تشبيه مناسب ، ثم لم يلبث أن قال فى انفعال :

ـــ سأخرجه من مكانه ، حتى ولو فككت تلك الآلة قطعة قطعة .

واندفع إلى ركن حجرة التوربينات الخلفية ، ليحضر أدوات العمل ، على حين أدار (مختار) ذلك الجزء من الآلة فى قوة ، وهو يقول :

ـــ ربّما أمكننا أن .....

قبل أن يتمَّ عبارته ، استسلم له ذلك الجزء ، وانتزعه هو من مكانه ، فهتف :

ـــ لقد نزعته يا (يُسرِى) .

التفت إليه (يُسرِى) ، وهو يهتف فى لهفة :

ـــ حقًا ؟!

مال (مختار) نحو الفراغ ، الذى نشأ من انتزاع الجزء ، وهو يقول :

ـــ هناك جسم أسود ، أشبه بمتوازى مستطيلات .

أسرع (يُسرِى) نحوه هاتفًا :

ـــ يا إلٰهى !!.. أمن الممكن أن ..... ؟

قاطعته صيحة ذُعر من (مختار) ، وهو يتراجع صارخًا :

ـــ ابتعد يا (يُسرِى) .. إنها قنبـ .....

وهنا دوَّى الانفجار ..

واشتعلت النيران فى الغواصة ..

* * *

٢ ـــ الجحيم ..

اندفع (يُسرِى) إثر الانفجار ، وشعر بجسده يرتطم بجدار حجرة التوربينات الخلفية ، وبالمحرِّكات والآلات ، قبل أن يسقط أرضًا ، ويهتف فى جَزَع :

ـــ (مختار) .. أين أنت ؟!

نهض فى ذُعر ، وفوجئ بنفسه وسط أتون مشتعل ..

كانت النيران تحيط به من كل جانب ، والأدخنة تكاد تخنقه ، ولم يكن هناك أى أثر لـ (مختار) ، إلا أن (يُسرِى) راح يصرخ :

ـــ (مختار) .. أين أنت ؟!

رأى النيران تندفع نحوه فى سرعة ، وأيقن من أن زميله وصديق عمره قد لَقِىَ حَتْفَهُ ، وأنه من المستحيل إنقاذه ، وسط ذلك الجحيم ، فتراجع هو فى ألم وذُعر ، وتلفَّت بعينيه حوله ، حتى لمح كُوَّة نجاة ، فاندفع نحوها ، وشعر بالنيران تلفح جانب وجهه ، وتشتعل فى جزء من سترته ، إلا أنه

وتلفَّت بعينيه حوله ، حتى لمح كُوَّة نجاة ، فاندفع نحوها ..

تجاهلها تمامًا ، وأمسك بمقبضي الكُوَّة ، ليفتحها ، ولم يكد يفعل حتى صرخ فى ألم ، فقد كانت درجة حرارة مقبضى الكوَّة كالنيران ، حتى لقد بدا له أنه قد قبض على جمر مشتعل ، فأسرع ينتزع سترته ، ويمسك بها مقبضى الكوَّة ، ويفتحها فى قوة ، ثم قفز خارج الحجرة ، فى الوقت الذى سيطرت عليها فيه النيران تمامًا ..

كان يتوقَّع أن يصل إلى منطقة آمنة ، إلا أنه فوجئ بالنيران تملأ الممرَّات ، وتنتشر فى كل مكان ، وتناهَى إلى مسامعه صراخ الجنود ، الذين باغتتهم النيران ، وهم يعدُّون الغوَّاصة لمناورة الغد ..

واندفع (يُسرِى) عَبْرَ الممرَّات الممتدَّة أمامه ، وبدا له أنه كان يخترق النيران فى بعض المواقع ، حتى بلغ حجرة القيادة ، فراح يضغط بعض الأزرار ، محاولًا فتح خزَّانات المياه فى الغوَّاصة ، لإطفاء النيران ، إلا أن الأزرار أبت أن تستجيب ، فتخلى عن محاولته ، وخُيِّل إليه ، وهو يعدُو نحو البرج ، أنه الوحيد الذى بقِىَ على قَيد الحياة ، وسط ذلك الجحيم ، إذ أنه ، باستثناء قرقعة النيران ، كانت الغوَّاصة ساكنة صامتة تمامًا ، وقد توقَّف الصراخ والأنين ..

وأخيرًا .. وبعد دقائق بدت له كالدهر ، وجد (يُسرِى) نفسه أعلى برج الغواصة ، وسمع صفارات الخطر ، التى تنطلق فى قوة ، فى كل أرجاء الميناء الحربى ، وشاهد سيارات الإطفاء ، ومئات من الجنود فوق رصيف الميناء ، فصرخ وهو يقفز إلى سطح الغوَّاصة :

ــ أغرقوا الغوَّاصة .. أغرقوها .. هذا هو السبيل الوحيد .. أغرقوها قبل أن تنفجر .

رأى ثلاثة جنود يندفعون نحوه ، وهم يحملون ملاءة كبيرة ، وفوجئ بهم يحيطون جسده بها ، وتنبَّه فجأة إلى أن النيران كانت تشتعل فى قميصه ، إلا أنه لم يبالِ ، وهو يواصل صراخه :

ــ أغرقوها قبل فوات الأوان .

حمله الجنود إلى رصيف الميناء فى سرعة ، ووجد نفسه إلى جوار عشرة جنود ، أصابتهم بعض الحروق ، وسمع صوت بُوق قوى ، يأتى من قلب البحر ، فأدار عينيه إليه ، ورأى ذلك الونش البحرى العملاق ، الذى يُطلق عليه رجال البحرية اسم (الونش الجبَّار) ، وهو يقترب من الغوَّاصة ، ورأى سلسلته الضخمة تمسك ببرجها ، ثم تجذبه إليها فى قوة ..

وغمغم (يُسرِى) فى تهالك :

ــ أغرقوها ..

ومالت الغوَّاصة على جانبها ، بفعل الشدِّ الرهيب للونش الجبَّار ، حتى اندفعت مياه البحر داخل فتحة برجها ، وأخذت تملؤها فى سرعة ..

وبدأت (البطة العجوز) فى الغوص ، وكميَّة هائلة من الأبخرة تتصاعد من فتحة برجها ..

وغرقت (البطة العجوز) ..

غرقت فى أعماق ميناء رأس التين الحربى ..

وهنا عاد الهدوء والسكون يسُودان المكان على نحو مباغت ..

كان الجميع صامتين ، يحدِّقون فى موقع غرق الغوَّاصة فى ذُهُول ، غير مصدِّقين ما حدث ..

وفى غمرة السُّكون والصمت ، ارتفع صوت (يُسرِى) بغتة ، وهو يقول :

ــ إنه ليس حادثًا عرضيًّا .

التفت إليه الجميع فى ذُهُول ، وهتف به قائد الميناء (النوبتجى):

ــ ماذا تقول ، أيها المقدَّم ؟

أجابه (يُسرِى) فى صلابة وعناد :

ــ الحقيقة يا سيِّدى .. هذا الحريق لم يكن عرضيًّا .. لقد حدث بفعل فاعل .

ثم أدار ذراعه حوله ، صائحًا فى غضب :

ــ هناك خائن هنا .

صاح قائد القاعدة فى ذُعر :

ــ أتدرى ما الذى يَعْنِيهِ قولك هذا ، أيها النقيب ؟

صرخ (يُسرِى) فى ثورة :

ــ نعم .. هناك خائن .. هناك خائن .

وفجأة ، وبلا مقدِّمات ، سقط فاقد الوعى ..

وعاد السُّكون ..

السُّكون الذى يسبق العاصفة ..

* * *

٣ ــ استدعاء رسمىّ ..

بَقِىَ (عصام) فى مكتبه ، فى قسم الحوادث بالجريدة ، حتى ساعة متأخِّرة من الليل ، يُعِدّ بعض أخبار الجرائم التقليدية ، على الرغم من مثُول الجريدة للطبع ، منذ أكثر من ساعتين ، فاقترب منه عم (أمين) ، فرَّاش القسم ، وقال فى لهجة أب عطوف :

ــ ألَنْ تعود إلى منزلك يا ولدى ؟.. لقد انصرف الجميع منذ أكثر من ساعتين .

تنهَّد (عصام) ، وهو يقول :

ــ صدِّقنى يا عم (أمين) .. إننى أشعر بمزيد من الملل هناك .

ضحك عم (أمين) ، وهو يقول :

ــ الملل ؟!.. عجبًا !.. أيشعر مثلك بالملل ؟.. كنت أظن حياتك الحافلة تكفى ، لدرءِ أى نوع من الملل عنك .

ابتسم (عصام) ، وهو يقول :

ـــ أتظنُّ أننى أقضى عمرى كله فى إثارة مستمرة يا عم (أمين) ؟

هتف عم (أمين) :

ـــ لست وحدى أظن ذلك يا أستاذ (عصام) .. كل قرائك يحملون الشعور ذاته ، عندما يطالعون تحقيقاتك المثيرة .

تنهَّد (عصام) مرَّة أخرى ، وقال :

ـــ كيف يا عم (أمين) ؟ إننى لم أنشر تحقيقًا واحدًا جيِّدًا منذ شهور .

ابتسم عم (أمين) ، وهو يقول :

ـــ أعلم ذلك يا أستاذ (عصام) ، منذ قضية ذلك الشبح(*) .

أومأ (عصام) برأسه موافقًا ، وقال :

ـــ هذا صحيح .. لقد كان شابًا مسكينًا ، أعمته الرَّغبة فى الانتقام ، حتى دفع حياته ومستقبله وشبابه ثمنًا لها .

قال هذاوتنهَّد للمرَّة الثالثة ، وكأنما يحمل فى أعماقه ملل الدنيا كلها ، ثم نهض ، قائلًا :

(*) راجع قصة (قضية شبح الضحية) .. المغامرة رقم (٣٦) .

ـــ ولكنك على حقٍّ يا عم (أمين) ، على أيَّة حال .. لا بدَّ لى من العودة إلى منزلى .

تطلَّع إليه عم (أمين) فى إشفاق ، وهو يلملم حاجاته ، استعدادًا للانصراف ، وقال له فى حنان أبوىَ :

ـــ أتقبل نصيحتى يا أستاذ (عصام) ؟

أجابه (عصام) فى هدوء :

ـــ بالتأكيد يا عم (أمين) .

قال الرجل فى إخلاص :

ـــ خُذْ إجازة طويلة .. إجازة تتغلَّب فيها على هذا الملل ، وتستعيد خلالها حماستك ونشاطك .

ابتسم (عصام) ابتسامة باهتة ، وهو يتطلَّع إلى عم (أمين) ، ثم لم يلبث أن غمغم فى فتور :

ـــ نعم يا عم (أمين) ، يبدو أنك على حقٍّ .

غادر مبنى الجريدة فى تكاسل ، وهو يشعر وكأن مللَه قد تضاعف عشرات المرَّات ، وألقَى تحية المساء على حارس المبنى فى ضجر ، وألقى نفسه داخل سيارته ، وأدار محرِّكها ، واستعد للانطلاق بها ، عندما تبخَّر مللَه كله دفعة واحدة ، وتوتَّرت كل عضلاته ، وانعقد حاجباه فى شدَّة ، وخفَق قلبه فى عُنف ..

فهناك ، على بعد أمتار قليلة أمامه ، وقفت سيارة كبيرة ، وعيون سائقها ، والرجل المجاور له تتطلَّعان إليه فى اهتمام وترقُّب ..

ولم يكن الأمر يحتاج إلى موهبة (عماد) و (غُلا) فى الاستنتاج ، ليعلم (عصام) أن الجالسين فى هذه السيارة يراقبانه ..

وبدلًا من أن يضطرب (عصام) ، أو يشعر بالخوف ، وجد نفسه يبتسم فى حماس ، ويغمغم فى لهجة أقرب إلى الجَذَل :

ـــ وداعًا أيها الملل .. مع احترامى للزميل العزيز (أنيس منصور)(*) .

وكشخص مُقْدِم على لُعبة طريفة ، اتسعت ابتسامة (عصام) ، وانطلق بالسيارة ، وَسَرَت السُّخرية فى ابتسامته ، عندما تعقَّبته السيارة الأخرى على الفور ، وغمغم :

ـــ هيَّا .. دعُونا نختبر مهارتكما .

(*) للكاتب الكبير (أنيس منصور) كتاب يحمل نفس الاسم (وداعًا أيها الملل) ..

وفجأة ، انحرف بسيارته فى طريق جانبى ، وزاد من سرعتها على نحو مباغت ، لينحرف منه إلى طريق ثان ، حيث أوقف السيارة بغتة ، وقفز منها ، واندفع يختبئ فى أحد الأركان ..

ومضت لحظة ، قبل أن يسمع صوت السيارة الأخرى ، وهى تنحرف خلف سيارته ، فى الطريق الجانبى الثانى ، وسمعها تتوقَّف فى حِدَّة ، وعجلاتها تُطلق صريرًا قويًّا ، قبل أن يُفتح باباها الأماميَّان ، ويقفز منها الرجلان ، ويهتف أحدهما فى توتُّر :

ـــ إنها سيارته .. أليس كذلك ؟

أجابه الثانى فى حَنَق :

ـــ بلَى ، ولكنها خالية .

هتف الأوَّل فى قلق :

ـــ أين ذهب إذن ؟

رَانَ الصمت بعد سؤاله تمامًا ، حتى أن (عصام) قد شعر بالقلق ، خاصة وأنه لا يرى الرجلين أو سيارتهما ، من حيث يقف ..

وفجأة ، برز أمامه أحد الرجلين ، وابتسم فى ظَفَر ، وهو يقول :

ـــ إذن فأنت هنا .

وبسرعة ، تحرَّك (عصام) ..

انحنى بغتة ، ومال جانبًا ، ودفع الرجل إلى اليسار ، ودار حوله فى مرونة ، ثم دفع كفَّيه تحت إبطى الرجل ، وتبعهما بذراعيه فى سرعة ، وأدار كفَّيه خلف عنق الرجل ، الذى هتف فى ذُعر ، من فرط المفاجأة :

ــ النَّجدة يا (شوق) !!

وجد (عصام) الرجل الآخر يندفع إلى مكانه بغتة ، وهو يستلُّ مسدَّسه من جيب سترته ، فدفع زميله فى وجهه ، وهو يهتف :

ــ لا أسلحة يا رجل .. هذا خطأ .

سقط الرجلان أرضًا ، وارتبكا لحظة ، قفز خلالها (عصام) نحوهما ، وكال لأوَّلهما لكمة عنيفة فى فكِّه ، وللآخر ثانية كالقنبلة فى معدته ، وأسرع يلتقط المسدَّس ، ويقفز إلى الخلف ، مصوِّبًا المسدَّس إليهما ، وصائحًا فى صرامة :

ــ انتهت اللُّعبة .. استسلما وإلا .....

رفع كل من الرجلين ذراعيه فوق رأسه ، وهتف أحدهما فى سُخط :

ــ إننا نستسلم ، وإن لم يكن هناك داع للقتال .

ابتسم (عصام) فى سُخرية ، وهو يقول :

ــ هكذا ؟!.. ألَمْ تنتبها إلى أنكما كنتما تطاردانني ؟

هتف الرجل الثانى فى حَنَق :

ــ لسنا ننكر ذلك ، لقد كنَّا نتعقَّبك طبقًا للأوامر .

هتف (عصام) فى دهشة :

ــ أوامر ؟!

أجابه الرجل الثانى فى حِدَّة :

ــ نعم .. لقد طُلِبَ منَّا إحضارك ، دون أن يشعر زملاء صحيفتك بذلك ؛ لذا فقد كنَّا ننتظر الابتعاد عن الجريدة ، لنعطيك طلب الاستدعاء الرسمى .

تضاعفت دهشة (عصام) ، وهو يقول :

ــ استدعاء رسمى ؟!

التقط أحد الرجلين من جيبه ورقة ، تحمل خاتمًا رسميًّا ، وناولها لـ (عصام) ، الذى قرأ عليها استدعاءً رسميًّا له ، من قسم مكافحة التجسُّس ، بإدارة مباحث أمن الدولة ، ولم يفاجئه مطلقًا ذلك التوقيع فى أسفلها ..

توقيع (عادل محمود) ..

* * *

التقط أحد الرجلين من جيبه ورقة ، تحمل خاتمًا رسميًا ، وناولها لـ(عصام) ، الذى قرأ عليها أستدعاءً رسميًا له ..

٤ ــ العميل السِّرِّىّ ..

ارتسمت ابتسامة واسعة ، على شفتى العقيد (عادل محمود) ، رئيس قسم مكافحة التجسُّس ، بإدارة مباحث أمن الدولة ، وهو ينهض لمصافحة (عصام)فى مكتبه ، قائلًا :

ــ مرحبًا يا (عصام) .. كيف حالك يا صديقى ؟

صافحه (عصام) ، وهو يقول فى جِدَّة :

ــ كان ينبغى أن أكون فى خير حال ، لولا ذلك الأسلوب السخيف ، الذى لجأت إليه لاستدعائى .

ضحك (عادل) ، وهو يقول :

ــ إنه أبسطُ أسلوب ممكن ، لاستدعاء سرِّى يا (عصام) .

هتف (عصام) فى حَنَق :

ــ وما شأنى أنا بالاستدعاءات السِّرِّية ؟

بدت له ابتسامة (عادل) شديدة الغموض ، وهو يقول فى هدوء :

ـــ من يدرى ؟.. ربما راق لك ذلك مستقبلًا .

عقد (عصام) حاجبيه ، وهو يغمغم فى دهشة :

ـــ مستقبلًا ؟!.

كان يتوقَّع من (عادل) تفسيرًا أو شرحًا ، إلا أنه فوجئ به يسأله فى هدوء ، وهو يبتسم ابتسامة صافية :

ـــ ما رأيك فى قدح من الشاى ؟

غمغم (عصام) فى حَذَر ، لم يَدْرِ لماذا لجأ إليه :

ـــ فى مثل هذه الساعة ؟!.. إنها الواحدة صباحًا .

هزَّ (عادل) كتفيه فى بساطة ، وهو يقول :

ـــ ربَّما امتدَّ بنا الحديث بعض الوقت .

ثم ضغط زِرّ جهاز الاتصال فوق مكتبه ، وانحنى نحوه مستطردًا فى لهجة آمرة :

ـــ أرسل لنا قدحين من الشاى يا (حسن) .

وعاد يعتدل مواجهًا (عصام) ، الذى باتَ شديد اللَّهفة والحَيْرَة ، لمعرفة سِرّ استدعاء (عادل) له ، حتى قال هذا الأخير فى هدوء :

ـــ هل بلغك أمر احتراق إحدى غواصاتنا ، فى ميناء (رأس التين) الحربى ؟

أومأ (عصام) برأسه إيجابًا ، وقال فى ضيق :

ـــ نعم .. لقد شعر نصف سكان المناطق المحيطة بالميناء بذلك ، وكنَّا قد أعددنا مكانًا لنشر الخبر ، ولكن الرقابة العسكرية تدخَّلت لمنع نشره .

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ـــ هذا صحيح .

هتف (عصام) فى حَنَق :

ـــ ولكن منع نشر أيَّة حقائق يتنافَى مع الديمقراطية .

حافظ (عادل) على ابتسامته ، وهو يقول فى هدوء :

ـــ حظر النشر لا ينطبق إلا على الأمور العسكرية فحسب يا (عصام) .

صاح (عصام) فى غضب :

ـــ ولماذا هى بالذات ؟

شبَّك (عادل) أصابع كفيَّه أمام وجهه ، وهو يقول فى بطء :

ـــ أمن الوطن .

لم تكن حتى جملة مفيدة ، يعترف بها أى دارس للنحو وقواعد اللغة ..

كانت مجرَّد كلمتين ..

مضاف ومضاف إليه ..

ولكن قلب (عصام) ارتجف فى قوة لدى سماعهما ..

ومن أعمق أعماقه ، اشتعل الحماس ، وبرز حبه لذلك الوطن ، الذى أنجبه ، واحتضنه ورعاه ..

وبمجرَّد ذكر الكلمتين ، تلاشى كل غضب (عصام) وحَنَقه ، وعاوده هدوء طالما اشتاق إليه ، فى الشهور الأخيرة ، فابتسم فى خجل ، وهو يسأل (عادل) :

ـــ كيف حال كتفك وساقك ؟ .. هل شفيا بعد استخراج الرصاصتين منهما ، فى قضيتنا الأخيرة ؟(*) .

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ـــ لقد شفيا والحمد لله .. لقد كان ذلك منذ شهور .

ثم مال نحو (عصام) ، واختفت ابتسامته ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـــ أأنت مستعد لخدمة وطنك يا (عصام) ؟

أجابه (عصام) فى حزم وحماس وإخلاص :

ـــ بحياتى كلها .

(*) راجع قصة (قضية شبح الضحية) .. المغامرة رقم (٣٦) .

اعتدل (عادل) ، وهو يقول فى حزم :

ـــ نحن نحتاج إليك .

وضع (عصام) يده على صدره ، وهو يقول فى حماس :

ـــ أنا رهن إشارتك .

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ـــ كنت أتوقَّع ذلك .

ثم نهض من خلف مكتبه ، وعقد كفَّيه خلف ظهره ، وهو يقول :

ـــ كيف اشتعلت الغوَّاصة فى رأيك يا (عصام) ؟

أجابه (عصام) فى حسم :

ـــ بفعل فاعل .

التفت إليه (عادل) فى دهشة ، وهو يقول :

ـــ كيف عرفت ؟

ابتسم (عصام) ، وهو يقول :

ـــ ما كنت لتطلب تعاونى ، لو أن الأمر خلاف ذلك .

أطلق (عادل) ضحكة عالية ، وهو يقول :

ـــ يا إلهى !!.. لقد أصبحت خبيرًا يا (عصام) .

ابتسم (عصام) ، وهو يقول :

ـــ تلميذك .

ربَّت (عادل) على كتفه فى اعتزاز ، ثم جلس قبالته ، وقال فى جِدِّيَّة :

ــ هناك خائن بين طاقم الغوَّاصة يا (عصام) ، فلقد اشتعلت الغوَّاصة بفعل عدة قنابل حارقة ، انفجرت كلها فى وقت واحد ، فى أثناء إعداد الغوَّاصة لمناورة الخريف ، ولدينا شاهد واحد على ذلك ، وهو مهندس الغوَّاصة ، النقيب (محمد يُسرِى) ، وهو الآن فى مستشفى (رأس التين) البحرى ، يُعَالج من حروق بالوجه والكفَّين ، وأسفل الإبط الأيمن ، ولقد كان من المنطقى أن تتجه شبهاتنا نحو أفراد الطاقم ، الذين كانوا خارج الغوَّاصة ، وقت انفجار القنابل ، وبالتحديد الخمسة المسئولين عن حجرة التوربينات الخارجية ، حيث كانت القنبلة الرئيسية ، التى تحكم انفجار باقى القنابل .

سأله (عصام) فى اهتمام :

ــ وما المطلوب منِّى بالضبط ؟

أجابه (عادل) فى هدوء :

ــ أن تذهب إلى قاعدة (رأس التين) ، كضابط اتصال بحرى ، وأن تبحث عن الخائن ، بين المشتبه فيهم الخمسة .

رَانَ الصمت لحظة ، ثم قال (عصام) فى هدوء :

ــ ولماذا وقع الاختيار علىَّ أنا بالذات ؟

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ــ سؤال ذكى .

ثم تراجع فى مقعده ، مستطردًا :

ــ لقد كان من المفروض أن تتولَّى المخابرات الحربية هذه العملية ، ولكن ثبت من تحرِّياتها أن اثنين من المشتبه فيهم الخمسة ، كانا يعملان فى المخابرات الحربية ، إلى مدة قريبة ؛ لذا فقد فضَّل مدير المخابرات الحربية إسناد الأمر إلينا ، خشية أن يكشف الجاسوس أمر تحرِّياتنا ، وبالنسبة لى ، قفز اسمك إلى ذهنى ، وأنا استعرض رجالى ، ووجدت فيك كل ما أنشده ، فأنت وطنى ، مخلص ، دقيق الملاحظة ، ذكى ..

وابتسم ، مستطردًا :

ــ ثم إنك صحفى .

سأله (عصام) فى دهشة :

ــ وما الذى يَعْنِيه ذلك ؟

أجابه (عادل) فى اهتمام :

ــ إننا نحاول إقناع ذلك الجاسوس المجهول ، بأننا قد

اكتفينا بتحقيق روتينى ، حول الحادث ، وأخشى ما نخشاه هو أن ينتبه إلى بحثنا ، فيأخذ الحذر ، ونعجزُ عن اصطياده ، على حين أن موقعه بالغ الخطورة ، ومن غير الممكن إبعاده عنه ، خشية السبب نفسه .

أومأ (عصام) برأسه ، وهو يغمغم :

ــ معقول ، وفى حالة كشف أمرى ، يمكنكم ادعاء أننى مجرَّد صحفى فُضُولى .

ثم رفع رأسه إلى (عادل) ، يسأله فى اهتمام :

ــ ومتى أبدأ العمل ؟

أجابه (عادل) فى هدوء :

ــ غدًا صباحًا ، ستنسَى (عصام كامل) الصحفى ، وتصبح (عصام عبد الحميد) .. ملازم أوَّل ، وضابط اتصالات .

قال (عصام) فى اهتمام :

ــ أظنُّ أنه من الضرورى أن أرسل طلب إجازة إلى الجريدة ، و .....

قاطعه (عادل) فى هدوء :

ــ لقد تمَّ إرساله ، وهو يحمل توقيعًا لا يمكن تمييزه عن توقيعك .

هتف (عصام) فى دهشة :

ــ ماذا ؟.. أكنت واثقًا من موافقتى إلى هذا الحدّ ؟

ابتسم (عادل) ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد .. ألَمْ تكن تشعر بالملل ؟

اتسعت عينا (عصام) فى دهشة ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، وهو يقول :

ــ كم يرُوق لى أن أعمل معك !!

غمغم (عادل) :

ــ وأنا أيضًا .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا فى جِدّية :

ــ وحذار أن يكشف الجاسوس طبيعة مهمَّتك .

وصمت لحظة ، قبل أن يستطرد فى حزم مخيف :

ــ عندئذ لن يتورَّع عن قتلك .. وبلا رحمة ..

* * *

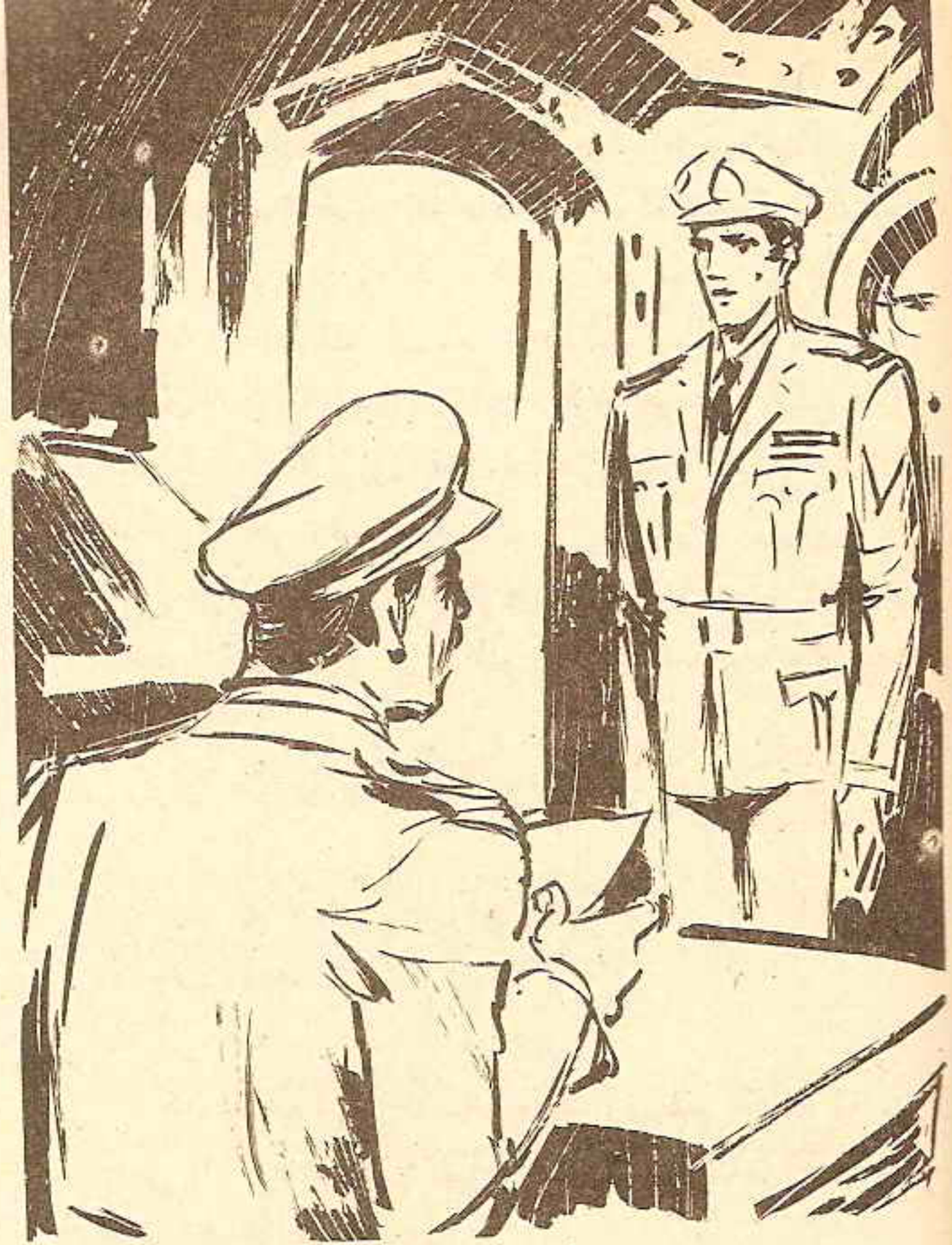

قرأ قائد القاعدة البحرية الأوراق ، التى تقدَّم إليه بها (عصام) ، فى هدوء ، ثم رفع عينيه إليه ، يتأمَّله فى اهتمام ..

٥ ــ الضابط البحرى ..

قرأ قائد القاعدة البحرية الأوراق ، التى تقدَّم إليه بها (عصام) ، فى هدوء ، ثم رفع عينيه إليه ، يتأمَّله فى اهتمام ، قبل أن يقول :

ــ منذ متى تعمل فى قاعدة (سفاجة) أيها الملازم ؟

أجابه (عصام) ، وهو يحرص على التــزام الوقفــة العسكرية الثابتة :

ــ منذ عام يا سيِّدى .

سأله القائد فى حَذَر :

ــ من كان قائدك ؟

أجابه (عصام) فى سرعة :

ــ العقيد (حسين علَّام) يا سيِّدى .

أومأ القائد برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ هذا صحيح .. مرحبًا بك بيننا أيها الملازم .. ستعمل على المدمِّرة (فجر) ، فهى بحاجة إلى ضابط اتصال .

شعر (عصام) بإعجاب شديد فى أعماقه ، تجاه ذلك التنسيق الرائع ، بين إدارتى المخابرات الحربية والمباحث العامة ، فبعد احتراق الغوَّاصة ، تم نقل المشتبه فيهم الخمسة إلى المدمِّرة (فجر) مؤقتًا ، لحين تنسيق عملهم على غوَّاصة أخرى ، وأمس فقط أصيب ضابط اتصال المدمِّرة (فجر) بعدوَى أنفلونزا شديدة ، جعلته يلزم الفراش ، بحيث جاء حضور (عصام) إلى القاعدة ، متوافقًا تمامًا مع احتياج المدمِّرة (فجر) لضابط اتصال ..

لم يَدْرِ تمامًا كيف أمكن لرجال المخابرات الحربية ، إصابة ضابط الاتصال بفيروس الأنفلونزا ، ولكنه كان يعلم أن هذا ما فعلوه ..

ربَّما بتلويث منديله بالفيروس ، أو بمخالطة مصاب به له ..

المهم أنه الآن سيذهب إلى (فجر) ..

وسيبدأ مهمَّته ..

* * *

كان المشتبه فيهم الخمسة يعملون ، فى نفس القاعة ، التى يعمل بها (عصام) ، إذ تمَّ إلحاقهم بالاتصالات مؤقتًا ، لحين نقلهم إلى غوَّاصة أخرى ..

كانوا ثلاثة جنود وضابطين ..

الجندى (فارس) ، جندى متطوِّع ، التحق بالسلاح البحرى منذ عام واحد ، وبسلاح الغوَّاصات منذ ثمانية أشهر ..

و (يُس) ، جندى متطوِّع أيضًا ، التحق بالبحرية منذ عامين ، ويعمل بنفس الغوَّاصة المحترقة منذ عام ونصف ..

و (جلال) ، مجنَّد ، تم إلحاقه بالغوَّاصة مؤقتًا ، قبل الحادث بأسبوع واحد ..

و (أيمن) ، ضابط بحرى برتبة ملازم ثان ، حديث الالتحاق بالتشكيلات المقاتلة ، وبالغوَّاصة المحترقة ..

وأخيرًا (طارق) .. مُهندس بحرى ، يعمل بالغوَّاصة منذ عام ونصف ..

ولقد كان استقبالهم لـ(عصام) فاترًا ، إذ صافحوه فى بُرُود ، وأرشدوه إلى مكان عمله فى ضَجَر ، فضحك وهو يقول :

ــ عجبًا !!.. ماذا أصاب رجال البحرية ؟

قال (يُس) فى لهجة لا تحمل نبرة وُدّ واحدة :

ــ احترقوا .

عقد (عصام) حاجبيه ، وراوَدته رغبة فى تحدّى الجميع ، ورد الكُرة إليهم ، فقال فى بُرود :

ـــ مع الغوّاصة ؟!

لم يكد ينطق بتلك الكلمة ، حتى خامره شعور قوى بالندم ، وكاد يعضُّ على شفتيه فى غيظ ، وقد بدا له أنه قد أفسد كل شىء بتسرُّعه ، خاصة أن الرجال الخمسة قد التفتوا إليه فى دهشة ، وغمغم (أيمن) فى حَنَق :

ـــ اللّعنة !.. يبدو أننا وحدنا نلتزم السرِّية .

على حين سأله (فارس) فى اهتمام :

ـــ كيف علمت بأمر تلك الغوّاصة ؟

هزّ (عصام) كتفيه ، وقال :

ـــ لو أنكم تتصوّرون أنه سرّ ، فأنتم واهمون ، فـ (الإسكندرية) كلها تتحدّث عن تلك (الغوّاصة المحترقة) .

لم يجبه أحدهم ، وإن بدا الشّك واضحًا فى وجوههم ، وطال صمتهم حتى أنه استطرد فى حِدّة :

ـــ من أين تتصوّرونني علمت به إذن ؟

أشاح (أيمن) و (طارق) بوجهيهما ، على حين مطّ

(يس) شفتيه ، وزفر (جلال) فى ضيق ، وابتسم (فارس) ، وقال فى لهجة تحمل الكثير من الخُبْثِ والدّهاء :

ـــ من يدرِى ؟..

وهكذا منذ اللحظة الأولى ، واللقاء الأوّل ، بدا الموقف كله شديد التوتُّر ، فلم يجد (عصام) أمامه أفضل من الإشاحة بوجهه عنهم ، والتظاهر بمراجعة بعض آلات الاتصال الخاصة به ، وهو يقلّب الموقف فى ذهنه ، على كل الوجوه ..

كان يحاول أن يقصر الشبهات على شخصين أو ثلاثة على الأكثر ..

ولقد تكوّنت لديه فكرة عامة ، إذ حصر شبهاته فى (جلال) و (أيمن) ، لأنهما أحدث الملتحقين بالغوّاصة ، بعد أن بدا له من غير المنطقى أن يعمل جاسوس داخل الغوّاصة لعام أو عامين ، قبل أن يقرِّر تفجيرها ..

وبينما استغرق فى التفكير ، سمع فجأة صوت (يس) يقول :

ـــ أيهمُّك معرفة ما حدث للغوّاصة ؟

خفق قلب (عصام) فى قوة ، وَوَدَّ لو أنه التفت إلى

(يُس) فى لهفة ، وسأله فى شَغَف عَمَّا لديه ، إلا أن كلمات (عادل) دَوَت فى عقله فى قوة :

ــ لا تبِد أى نوع من اللَّهفة لمعرفة أيَّة معلومات ، فهذا وحده كفيل بكشف أمرك .. دَعْهُم هم يدلُون بما لديهم ، وتظاهر بأنك مجرَّد مستمع ، لا يعنيه الأمر كثيرًا ، وثِق أنهم سيخبرونك بكل ما يحملونه ، إذ إن المرء ، فى مثل هذه الظروف المتوتِّرة ، يكون فى أمسِّ الحاجة إلى من يستمع إليه ..

وابتسم (عصام) فى هدوء ، عندما استرجع تلك الكلمات ، وقال دون أن يلتفت إلى (يُس) :

ــ لو أن هذا يَرُوق لك .

قالها فى بساطة ولا مبالاة ، حتى إن (يُس) تردَّد لحظة ، قبل أن يغمغم :

ــ إنه أمر سخيف .

تدخَّل (طارق) فجأة ، قائلًا :

ــ أتصدِّق حقًّا أنه حادث مفتعل ؟

تلفَّت (يُس) حوله فى قلق ، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد ، وغمغم :

ــ من يدرى؟

مطَّ (فارس) شفتيه وقال :

ــ لن أصدِّق ذلك أبدًا .. إنها غوَّاصة قديمة ، ومن الطبيعى أن يحدث فيها أى خلل .

عقد (أيمن) حاجبيه ، وهو يقول :

ــ ألَمْ تسمع ما قاله المهندس (يُسرِى) ، فور خروجه من الغوَّاصة ؟.. لقد هتف بأنه يوجد خائن بيننا .

هتف (فارس) فى حِدَّة :

ــ أتصدِّق ذلك الهُرَاء ؟

أجابه صوت (طارق) فى صرامة باردة :

ــ ولِمَ لا ؟

احتقن وجه (فارس) فى توتُّر ، وهو يغمغم :

ــ معذرة يا سيِّدى .. إننى لم أقصد الإساءة إلى سيادة المقدَّم (يُسرِى) ، ولكننى أقصد أنه من الطبيعى أن يقول ذلك ، بعد أن نجا لِتَوِّه من الموت بأعجوبة ، ورأى بطته العجوز تنهار أمام عينيه ، بعد كل ما بذله ، طَوَال اثنى عشر عامًا ، ليجعل منها أفضل غوَّاصات الأسطول .

قال (طارق) فى هدوء :

ــ هذا لا يمنع من كَوْنِ الحادث متعمَّدًا .

قال (فارس) فى توتُّر :

ــ لسنا فى زمن حرب .

ابتسم (طارق) فى سُخرية ، وهو يقول :

ــ ومن قال إن التخريب العسكرى يقتصر على زمن الحرب فحسب ؟.. إن التخريب العسكرى لا يتوقَّف أبدًا ، فهو جزء من سباق التسلُّح ، الذى ينقسم إلى قسمين ، يعتمد الجزء الأوَّل على إنتاج وشراء أسلحة تفُوق أسلحة الأطراف الأخرى ، ويعتمد الجزء الثانى على إيقاف وتدمير أسلحة وتطور الطرف الآخر .

سأله (عصام) فى اهتمام :

ــ أين تعلَّمت ذلك ؟

التفت إليه (طارق) فى حركة حادَّة ، وَحَدَجَه بنظرة قاسية قصيرة ، قبل أن يشيح بوجهه ، مغمغمًا :

ــ إنه أمر منطقى فحسب .

قال (جلال) فى هدوء :

ــ أيَعْنِى هذا أنه ليس قاعدة ملزمة يا سيِّدى ؟

هتف به (طارق) فى صرامة :

ــ بل هو كذلك ؟

ارتسمت على شفتى (جلال) ابتسامة خبيثة ، وهو يقول :

ــ كما تأمر يا سيِّدى .

وكأنما كان فى هذا القول فصل الختام ، فقد ساد الصمت فجأة ، واتجه كل من قاطنى الحجرة الستة إلى عمله ، دون أن يتبادل أحدهم كلمة زائدة مع آخر ..

ووسط هذا الصمت ، كان هناك حديث صاخب ، يدور فى رأس أحد المشتبه فيهم الخمسة ، وهو يختلس النظر إلى (عصام) ، قائلًا فى أعماقه :

ــ إذن فأنت هو (عصام كامل) ، ذلك الصحفى الجسور .. يا لك من احمق ! ويا لمن أرسلوك هناك من حمقى !! صحيح أنهم لا ينشرون صورتك مع تحقيقاتك ، ولكننى تعرَّفتك ، فقد أَوْقَعْت زملاء لى مسبقًا(*) .

عاد يختلس النظر إلى (عصام) ، قبل أن يستطرد فى أعماقه بسُخرية :

ــ يبدو أنها فرصة مناسبة للانتقام منك أيها الصحفى .. فأنا سأقتلك .

وفى أعمق أعماقه ، انطلقت ضحكة ساخرة وحشية ..

★ ★ ★

(*) راجع قصة (قضية حرب المخدرات) .. المغامرة رقم (٢٥) .

٦ ــ الجاسوس القاتل ..

نهض (عادل محمود) من خلف مكتبه فى احترام بالغ ، عندما شاهد مدير مباحث أمن الدولة يدلف إلى مكتبه ، ولكن هذا الأخير أشار إليه بالبقاء فى مكانه ، وهو يقول :

ــ لا عليك يا (عادل) .. لقد أردت التحدُّث إليك فحسب .

جلس (عادل) ، بعد أن استقرَّ مدير المباحث ، على المقعد المقابل له ، وقال :

ــ كان يمكنك أن تستدعينى إلى مكتبك يا سيِّدى .

ابتسم المدير ، وهو يقول :

ــ دَعْكَ من هذه الروتينيات يا عزيزى ، فكلنا هنا أسرة واحدة ، ونعمل جميعًا لصالح الوطن .

غمغم (عادل) فى اعتزاز :

ــ ونحن نفخر بذلك يا سيِّدى .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، ثم حملت ملامحه كل القلق فى أعماقه ، وهو يسأله :

ــ كيف حال عملية (رأس التين) ؟

هزَّ (عادل) كتفيه ، وقال :

ــ إنها لم تبدأ سوى هذا الصباح يا سيِّدى .

سأله المدير فى قلق واضح :

ــ أتظن أن ذلك الصحفى مؤهَّل للقيام بها ؟

أجابه (عادل) فى ثقة :

ــ إننى أتحمَّل المسئولية كاملة يا سيِّدى .

هزَّ المدير رأسه فى ضيق ، وهو يقول :

ــ إنها ليست مسألة مسئوليات يا (عادل) ، فلقد اتفقنا على أننا نعمل جميعًا لصالح الوطن ، وهَذَا يَعْنِى أن المهم هو نجاح العملية .

قال (عادل) فى حماس :

ــ ستنجح بإذن الله يا سيِّدى .

غمغم المدير :

ــ هذا ما أتمنَّاه يا (عادل) .

ثم رفع رأسه إليه ، قائلًا :

ــ ألَمْ تكوِّن أيَّة فكرة ، من التحقيقات الأوَّلية ؟

هزَّ (عادل) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى أسف :

ـــ كلَّا يا سيِّدى ، فمن الواضح أن ذلك الجاسوس رجل شديد الحرص والذكاء ، ولقد فحصت ملفَّات المشتبه فيهم الخمسة ، فلم أجد فى ملف أحدهم ما يثير الشبهات .

زفر المدير فى ضيق ، وهو يقول :

ـــ لقد أحسن الأعداء اختيار جاسوسهم .

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ـــ من يدرى يا سيِّدى ؟.. إنها لُعبة معقَّدة ، بيننا وبينهم ، والرابح الحقيقى هو من يربح فى النهاية .. أليس كذلك ؟

تنهَّد المدير فى عمق ، وشرَدَ بصره ، وهو يغمغم :

ـــ بَلى .. المهم هو من يربح فى النهاية .

* * *

رقد (عصام) فى كابينته الصغيرة ، داخل المدمِّرة ، يفكِّر فيما حدث ، فى اليوم الأوَّل له فى اللُّعبة ..

كان من الواضح أن تحديد المشتبه فيه ، وسط هؤلاء الخمسة ، أمر بالغ الصعوبة ، فالجميع يبدون عاديِّين للغاية ، ومن العسير أن يركِّز المرء شبهاته على أحدهم بالذات ، إلا إذا .....

إلا إذا كشف الجاسوس نفسه ..

ولكن كيف ؟..

كيف يمكن دفعه إلى كشف نفسه ؟..

وفجأة ، وعند هذا السؤال الأخير ، انتبهت حواسه كلها ، واعتدل جالسًا على طرف فراشه الصغير ، وحبس أنفاسه ، وهو يُرْهِف سمعه فى اهتمام ، فقد تناهَى إلى مسامعه وقع خُطُوات تقترب من كابينته فى حَذَر ..

وتوقَّفت الخطوات أمام باب الكابينة ، ورأى مقبض الباب يدُور فى سكُون ، فغمغم فى انفعال :

ـــ يبدو أن الجاسوس سيكشف نفسه بأسرع مما كنَّا نتوقَّع .

قفز فى خفَّة ، إلى ما خلف باب الكابينة ، فى الوقت الذى بدأ الباب يتحرَّك فيه إلى الداخل فى حَذَر ..

ومن مكمنه ، رأى (عصام) رأس رجل يطلُّ داخل الكابينة ..

وفجأة ، دفع (عصام) الباب فى عُنف ، وسمع تأوُّه الرجل ، حينما ارتطم رأسه بحافَةِ الباب ، قبل أن يقفز نحوه ، ويحيط عنقه بذراعه ، صائحًا فى صرامة :

ـــ لقد كشفت نفسك يا رجل .

صرخ الرجل فى توتُّر :

ــ كشفت ماذا ؟.. إننى (جلال) .

أداره (عصام) إليه فى عُنف ، ودفعه فى صدره ، فألقاه فوق الفراش ، وهو يقول فى حزم :

ــ أيَعْنِى هذا شيئًا ؟

هتف (جلال) فى ذُعر :

ــ بالتأكيد ، فلست أفهم سرّ ما تفعله يا سيِّدى .. إننى لم أخطئ .

انتزعه (عصام) من سترته ، وهو يقول فى صرامة :

ــ هكذا ؟!.. ما الذى جئت تفعله بحجرتى إذن ؟

هتف (جلال) فى هلع :

ــ لقد طلب منِّى القبطان استدعاءك .

تجمَّدت عضلات (عصام) ، وهو يغمغم فى دهشة :

ــ القبطان ؟!

هتف (جلال) :

ــ نعم يا سيِّدى .. القبطان .. لماذا تظنّنى جئت إذن ؟

زفر (عصام) فى ضيق ، وقال :

ــ يبدو أننى شديد التوتُّر يا (جلال) . معذرة .

غمغم (جلال) فى توتُّر :

ــ لا عليك يا سيِّدى ، ولكن هلَّا تركت سترتى ..

تنبَّه (عصام) إلى أنه ما يزال يجذبه من سترته ، فتركها ، وهو يغمغم :

ــ بالتأكيد .

وتضرَّج وجهه بحُمرة الخجل ، وهو يربِّت على كتفه ، قائلًا :

هيَّا يا فتى .. هيَّا نرى ما الذى يريده القبطان .

* * *

استقبل القبطان (عصام) فى كابينته الخاصة ، وأشار إليه بالجلوس ، وهو يقول فى هدوء :

ــ اجلس أيها الملازم .. أنت ضابط الاتصال الجديد هنا .. أليس كذلك ؟

قال (عصام) فى هدوء :

ــ بَلَى يا سيِّدى .. هو أنا .

مطَّ القبطان شفتيه ، على نحو أصاب (عصام) بالضيق ، وإن بدا كأسلوب نَمَطىّ للرجل ، الذى استطرد فى اهتمام :

ــ منذ متى تعمل ضابطًا للاتصال ؟

أجابه (عصام) فى هدوء :

ــ منذ فترة قصيرة يا سيِّدى .

عاد القبطان يمط شفتيه ، مغمغمًا :

ــ أنت قليل الخبرة إذن .

تنهَّد (عصام) ، وهو يقول :

ــ إلى حَدِّ ما يا سيِّدى .

هزَّ القبطان رأسه ، على نحو يبدو وكأنما لا يَرُوق له الأمر ، قبل أن يسأله مرَّة أخرى :

ــ هل استكملت الفرق اللازمة ؛ للعمل هنا ؟

سأله (عصام) :

ــ أتقصد فرق الاتصالات يا سيِّدى ؟

أجابه القبطان :

ــ بل فرقة الغوص بالتحديد .

غمغم (عصام) فى دهشة :

ــ الغــوص ؟!.. ومــا شأن الغــوص بالاتصالات يا سيِّدى ؟

عقد القبطان حاجبيه ، وهو يقول فى حِدَّة :

ــ ما شأنه ؟!.. عجبًا!!.. إنك تتحدَّث كما لو أنك لست ضابطًا بحريًا أيها الملازم !.. لابدَّ لكل من يلتحق بالبحرية من أن يجيد السباحة والغوص .

أسرع (عصام) يقول :

ــ بالتأكيد يا سيِّدى .. إنك على حقٍّ .

تراجع القبطان فى مقعده ، وقال فى صرامة :

ــ غدًا تبدأ فرقة الغوص .

هتف (عصام) فى دهشة :

ــ غدًا ؟!

أجابه القبطان فى صرامة :

ــ نعم .. سيغوص الرجال الخمسة ، الذين يرافقونك فى حجرتك ، غدًا ، لتفقُّد (البطة العجوز) فى الأعماق ، قبل انتشالها ، وهم يحتاجون إلى ضابط اتصال ، وستصحبهم إلى الأعماق .

شعر (عصام) بتوتُّر بالغ ، نظرًا لأنه لم يهبط إلى الأعماق أبدًا من قبل ، وبدت له التجربة مخيفة ، خاصة أنه سيهبط بصحبة خمسة رجال ، أحدهم خائن قاتل ، إلا أنه لم يكن يملك سوى أن يجيب :

ــ كما تأمر يا سيِّدى .

وغادر حجرة القبطان متوتِّــرًا ، يضرب أخماسًا فى أسداس ، متسائلًا عما يمكنه أن يفعله ، ليتفادَى تلك التجربة ..

وارتكن إلى حاجز المدمِّرة ، يتطلَّع إلى المياه ، التى انعكس عليها ضوء القمر ، وهو يغمغم :

ـــ والآن ماذا تفعل يا (عصام) ؟

لم يكد يتمُّ عبارته ، حتى خُيِّل إليه أنه يسمع صوت أقدام تقترب منه فى حَذَر ، فالتفت إلى مصدرها فى سرعة ..

ولكن التفاتته لم تكتمل ..

لقد تسارعت الأقدام فجأة ، وشعر (عصام) بكفَّين يدفعانه فى قوة ، قبل أن يرى وجه مهاجمه ، فارتطم بحاجز المدمِّرة ، و .....

وهَوَى فى البحر ..

★ ★ ★

وشعر (عصام) بكفَّين يدفعانه فى قوة ، قبل أن يرى وجه مهاجمه ،
فارتطم بحاجز المدمِّرة ، و ..... وهَوَى فى البحر

٧ ــ الأعماق ..

كان سطح المدمِّرة يرتفع عن سطح الماء بثلاثة عشر مترًا ، قطعها (عصام) بسرعة الجاذبية الأرضية ، وهو يهوِى ، حتى ارتطم بسطح الماء بدوِىٍّ كالقنبلة ..

أو هكذا خُيِّل إليه ..

وغاص فى الأعماق ..

أعماق مظلمة مخيفة ..

غاص لثلاثة أمتار على الأقل ، قبل أن يبدأ المقاومة ، فيدفع ساقيه وذراعيه فى قوة ، ليصعد إلى السطح ..

واختنقت أنفاسه فى صدره ، وتولَّاه ذُعر مُبهم ، حتى صعد إلى السطح ، فوجد نفسه وسط دائرة من الضوء ، وسمع عشرات الأصوات على سطح المدمِّرة ، وميَّز من بينها صوت المهندس (طارق) ، وهو يهتف :

ــ ها هو ذا .. لقد صعد إلى السطح .

لم يكد (طارق) يتمُّ عبارته ، حتى سقط طوق نجاة إلى جوار (عصام) ، وسمع صوتًا يهتف .

ــ تعلَّق به .

تشبَّث (عصام) بطَوْق النجاة ، وترك بحَّارة المدمِّرة يجذبونه إليها ، وشعر بهم يرفعونه مع الطوق إلى أعلى ، وكأنما لا وزن له ، حتى أصبح على السطح ، فأحاط به عشرات الجنود ، يحاولون إسعافه ، ويسألونه عمَّا أصابه ، حتى هتف به (طارق) :

ــ ماذا حدث ؟.. كيف سقطت ؟

لوهلة كاد (عصام) يروِى لهم ما حدث ، إلا أنه لم يلبث أن قدَّر أن هذا لايفيد مهمَّته ، فقال فى توتُّر :

ــ لقد زَلَّت قدمى فحسب .

تبادل البحارة نظرات الدهشة ، وهم يغمغمون :

ــ زلَّت قدمك ؟!

كان من غير المنطقى بالنسبة لهم ، وبالنسبة لأى مخلوق ، أن تَزِلَّ قدم ضابط بحرى ، فيرتطم بحاجز يرتفع مترًا عن السطح ، ويسقط من فوقه إلى البحر ..

كان هذا لا يحدث ، حتى مع المجنَّدين الجُدُد ..

ولكن أحدًا لم يعترض ..

الجميع تظاهروا بتصديق قول (عصام) ، وتركوه يعود إلى حجرته ، ليبدِّل ثيابه ، ويجفِّف جسده ..

وبالنسبة لـ (عصام) ، كان ما حدث يَعْنِى شيئًا واحدًا ..

أن أمره قد كُشِفَ ..

أن اللُعبة قد أصبحت تُدار بأوراق مكشوفة ..

والآن الأمر قد صار خطيرًا ..

بل بالغ الخطورة ..

* * *

دار ذلك الخاطر فى ذهن (عصام) مرَّة أخرى ، وهو يجلس داخل زورق بخارى متوسِّط الحجم ، فى ذلك الحوض البحرى ، الذى غاصت فيه الغوَّاصة المحترقة ، مرتديًا ثياب الغوص ، وحوله المشتبه فيهم الخمسة ، يرتدون الثياب ذاتها ، ويعلِّقون خلف ظهورهم أسطوانات الأكسوجين النقىّ ، للتنفُّس تحت الماء ..

وقبل أن يبدأ الغوص ، قال (يُس) :

ــ إنها أوَّل محاولة غوص لك يا سيِّدى .. أليس كذلك ؟

أومأ (عصام) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ــ بلَى .

أومأ (يُس) برأسه متفهِّمًا ، وقال :

ــ لابأس .. الأمر بسيط للغاية .. ستساعدك زعانف القدمين المطاطية على الحركة بسهولة ، أما بالنسبة لمنظم أسطوانة الهواء ، فعليك أن تضغط طرفيه بأسنانك ، حتى يندفع الهواء إلى صدرك ، وعندما تُرْخِى أسنانك يتوقَّف ضخّ الهواء ، وعندما تحين لحظة الصعود ، ينبغى ألا تصعد دفعة واحدة ، وإلا تكوَّنت فقاقيع النيتروجين داخل الشرايين والعروق ، فتتسبَّب فى انسداد هوائى ، يؤدى فى معظم الأحيان إلى الوفاة .. وحاول أن تجعل صعودك تدريجيًا ، معتمدًا على العقد الموجودة بحبل الإرشاد ، الذى سيهبط معنا .

غمغم (عصام) :

ــ سأحاول .

ابتسم (يُس) ، وهو يقول :

ــ معذرة يا سيِّدى ، ولكن ينبغى أن تحاول فى شدَّة فالخطأ الواحد فى الأعماق قد يَعْنِى حياتك .

أيقظت العبارة مخاوف (عصام) ، فأجاب فى توتُّر :

ــ سأذكر ذلك جيِّدًا ..

رفع (طارق) ذراعه ، وقال :

ــ استعدُّوا .

وضع الجميع منظمات أسطوانات الهواء فى أفواههم ، واستعدُّوا ، حتى قال (طارق) فى حزم :

ــ هيَّا .

وهبط الجميع إلى الأعماق ..

* * *

تكفَّل الـفُضُول وحـده بالإطاحـة بنصف مخاوف (عصام) ، فور غوصه فى تلك الأعماق ..

كان يقتحم عالمًا جديدًا ، طالما شاهده على الشاشات ، دون أن يلمسه بيده مرَّة واحدة ..

عالم رائع ..

وبانسيابية أنيقة ، اقترب الرجال الستة من برج الغوَّاصة الغارقة ، وأشار إليهم (طارق) ، فدلفوا إليها واحدًا بعد الآخر ..

وانفصل كل منهم ، طبقًا للخُطَّة الموضوعة مسبقًا ، فيما عدا (عصام) ، الذى بَقِىَ مع الملازم (أيمن) ، نظرًا لحداثته فى فنِّ الغوص ..

واتجه الاثنان إلى حجرة التوربينات الخلفية ..

وشقَّ ضوء مصباحيهما الظلام ، وهما يعبُرَان تلك الممرَّات الضيقة ، فى عمق الغواصة ، حتى وصلا إلى هدفهما ..

وكانت أوسع حجرات الغوَّاصة تقريبًا ..

وثبَّت الاثنان مصباحيهما عند باب الحجرة ، ليتكفَّلا بإضاءَتِها ، دون أن يَعُوقا حركتهما ..

وبدأت عملية الفحص ..

كان من الواضح أن الانفجار الأوَّل قد حطَّم مساحة كبيرة ، قبل أن تتكفَّل النيران بتدمير الباقى ..

وفى حماس ، أشار (أيمن) إلى جسم أسود ، يبدو واضحًا خلف عدة مواسير ضخمة ، واتجه إليه مع (عصام) ، وراحا يدفعان المواسير ، بكل ما يملكان من قوة ، حتى يمكنهما التقاط ذلك الجسم الأسود ..

وفجأة ، اختفى ضوء المصباحين ..

اختفى بغتة ، كما لو أن أحدًا قد أطفأهما دفعة واحدة ، وساد ظلام تام دامس ، جعل قلب (عصام) يرتجف فى رُعب ، وهو يتلمَّس طريقه وسط الماء ، نحو الملازم (أيمن) ، وخيَّل إليه أن جسمًا قد عَبَرَ إلى جواره ، فاستدار إليه ..

وفجأة ، اضطربت المياه بجانبه فى شدة ، وبدا الأمر أشبه بصراع عنيف نشب فجأة ، وارتطمت زعنفة قدم بوجهه ، فدفعته إلى الخلف ، وجعلته يرتطم بالآلات فى عُنف ..

ولأوَّل مرَّة ، منذ بدأ الغوص ، شعر (عصام) بالحَنَقِ ، لأن غوصه فى الأعماق يمنعه من الكلام ، ومن معرفة ما يحدث حوله ..

وراح قلبه ينبض فى خوف وتوتُّر ..

وفجأة ، ساد الهدوء حوله تمامًا ..

كان من الواضح أن المعركة قد انتهت ، لصالح أحد المتقاتلين ..

ولكن أيهما ؟..

وفى توتُّر بالغ ، راح (عصام) يتحسَّس جدران حجرة التوربينات الخلفية ، محاولًا التوصُّل إلى بابها ..

وفى أعماقه راح يصرخ :

ــ ماذا حدث يا ترى ؟.. أهو ذلك الجاسوس ؟.. هذا يثبت أنه ليس (أيمن) على الأقل .. وأنه أحد الأربعة الآخرين .. ولكن من هو ؟.. وماذا أصاب (أيمن) ؟

عثر بغتة على فتحة الباب ، وخامرته فكرة الفرار بأقصى سرعة ، إلا أن خوفه على مصير (أيمن) جعله يبحث عن موضع المصباحين ، حتى عثر عليهما فأسرع يضيئهما ..

وفى البداية ، بدت له الحجرة خالية ، ثم لم يلبث ضوء المصباحين أن وقع على مشهد مفزع ..

على وجه (أيمن) ، الذى يحمل أبشع آيات الرُّعب ، وقد مزَّق أحدهم خرطوم أسطوانة الأكسوجين الخاصة به ، وتركه يختنق فى الأعماق ..

وتراجع (عصام) كالمصعوق ، عندما وقع بصره على ذلك المشهد ، وراح يصرخ فى أعماقه :

ــ ذلك الخائن القذر العميل .. لقد قتل (أيمن) .. لقد قتل ضابطًا مصريًّا .

وفجأة ، خيِّل إليه أنه يختنق ..

لقد استهلك انفعاله كل ما تبقَّى فى أسطوانته من هواء ..

لقد أصبح بلا هواء ، على عمق تسعة أمتار ، وداخل حجرة تبعد ثلاثين مترًا عن أقرب فتحة للخروج من الغواصة ..

إنه سيشارك (أيمن) مصيره ..

الغرق ..

★ ★ ★

وقد مزَّق أحدهم خرطوم أسطوانة الأكسوجين الخاصة به ، وتركه يختنق فى الأعماق ..

٨ ــ المعجزة ..

لم يشعر (عصام) ــ فى حياته كلها ــ بقيمة الهواء ، الذى تستنشقه كل مخلوقات الأرض ، كما شعر بها فى تلك اللحظة ..

لقد كان مستعدًا لدفع نصف عمره ، من أجل جُرعة هواء ، تمنحه النصف الثانى ..

وكان عليه ، فى الوقت نفسه ، أن يتحرَّك فى سرعة ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، راح يدفع جسده إلى الأمام ، مكتفيًا بالبقية الباقية من الهواء فى صدره ، وعَبَرَ باب حجرة التوربينات الخلفية ، وأخذ يسبح عَبْرَ الممر الخارجى ، مستعينًا بضوء مصباحه ..

وبدت له المسافة كأن لا نهاية لها ..

بدت له أشبه ببرزخ بين الحياة والموت ..

وبدا لنفسه أشبه برجل يحتضر ..

ومنحه ذلك الخاطر الأخير قوة ، جعلته يدفع جسده إلى

الأمام ، ويحرّك ذراعيه وقدميه فى عُنف ، ويقاتل من أجل حياته ..

وأخذت أنفاسه تضيق ، وتضيق .. وتضيق ..

وبدأت مقاومته تضعف ، وتضعف .. وتضعف ..

وفجأة ، لم يَعُدْ يحتمل ..

انهارت مقاومته كلها ..

عجز جسده عن مواصلة رحلة الصراع ..

واستسلم (عصام) ..

استسلم للموت فى الأعماق ..

وتراخى جسده ، ولم يَعُد هناك ما يحرّكه سوى تيّار الأعماق فقط ..

تمامًا كالموتى ..

* * *

صعد (طارق) إلى سطح المْاء ، ورفع جسده إلى الزّورق البخارى المتوسّط الحجم ، الذى ينتظر فوق السطح ، وقال وهو ينزع منظاره :

ــ هل الجميع هنا ؟

أجاب (جلال) فى قلق :

ــ الملازم (أيمن) والملازم (عصام) لم يعودا بعد يا سيّدى .

اتسعت عينا (طارق) ، وهو يهتف :

ــ ماذا ؟!

وأشار إلى ساعته ، وهو يستطرد فى ذُعر :

كمية الأكسوجين معهما لن تكفى لكل هذا الوقت .

ودون أن يضيف كلمة أخرى ، أعاد منظاره إلى عينيه ، وقفز فى الماء ..

* * *

استسلم (عصام) تمامًا لمصيره ، وراح شريط من الأفكار والذكريات يمرُّ أمام عينيه فى سرعة ، كما لو كان يستعرض حياته كلها ، قبل أن ينتقل إلى عالم الموتى ، وترك جسده لتيّارات الأعماق تمامًا ، و .....

وفجأة ، التقط فى صدره دفعة قوية من الهواء ..

واتسعت عيناه فى ذُهول ..

كان الأمر أشبه بالمعجزة ..

لقد دفعه تيّار الأعماق إلى جيب هوائى ، بقِىَ فى أحد أركان الغوّاصة الغارقة ..

تمامًا ، مثلما يحدث عندما تقلب كوبًا فارغًا فى الماء ..

وخفق قلب (عصام) فى قوة ..

إنها حقًا معجزة ..

لقد أراد له الله (سبحانه وتعالى) النجاة ، ومواصلة طريقه ..

وبكل ما يملك من قوة ولهفة ، راح (عصام) يستنشق الهواء فى ارتياح ، ثم ملأ صدره بكمية كبيرة منه وعاد يغوص بحثًا عن مخرج ..

وفى هذه المرَّة كان الأمل فى صدره كبيرًا ..

ولقد أنعشه هذا الأمل ، وجعله يحتمل ، حتى بلغ فتحة بُرج الغوَّاصة ..

وبكل ما تبقَّى له من قوة ، دفع (عصام) جسده خارج فتحة البُرج ، وراح يضرب بساقيه وذراعيه فى قوة ، ليصعد إلى السطح بأقصى سرعة ..

وفجأة ، أمسكت قبضة قوية بكاحله ..

قبضة بشرية منعته من الصعود ..

ولم يفكِّر (عصام) لحظة واحدة ، فيمن يكون صاحب تلك القبضة ..

لقد عرفه ..

إنه الجاسوس ..

* * *

دار (عصام) حول نفسه ، وهو يواجه خصمه ، وحرَّك قبضته فى عُنف ، وكأنما يحاول أن يلكمه ، ولكن مقاومة الماء جعلت لَكْمَتَهُ ضعيفة للغاية ، على حين ارتفع خصمه إلى أعلى ، وطوَّق وسطه بذراعيه ..

وهنا عرف (عصام) من هو خصمه ..

لقد رآه وجهًا لوجه ..

يا إلٰهى !!.. إذن فهذا هو الجاسوس ..

إنه هو بالتأكيد ..

إنه يحاول منعه من الصعود إلى السطح ..

إنه يحاول إغراقه

وبكل ما يملك من قوَّة ، دفع (عصام) ركبتيه فى صدر خصْمه ، وأجبره على التخلِّى عنه ، ثم ارتفع إلى السطح بسرعة ..

وراح السطح يقترب بسرعة .. بسرعة ..

وأنفاسه تضيق .. تضيق ..

وفجأة ، شعر (عصام) بآلام مبرِّحة فى ذراعه اليسرى وأسنانه ..

لم يَدْرِ ما الذى يَعْنِيه ذلك ..

ولم يكن لديه ما يكفى من الوقت ليدركه ..

لقد خارت قواه فجأة ، وأظلمت الدنيا من حوله ، و .....

وفقد وعيه ..

* * *

لم يكد رنين الهاتف المجاور لـ (عادل محمود) يرتفع ، حتى اختطف سمَّاعته فى لهفة ، ووضعها على أذنه ، هاتفًا :

ــ من المتحدِّث ؟

اتسعت عيناه ، وهو يستمع إلى محدِّثه ، ثم لم يلبث أن هتف فى حَنَق :

ــ حسنًا .. سأصل على الفور .

وأعاد سمَّاعة الهاتف ، وهبَّ من مقعده فى توتُّر ، فسأله زميله (مدحت) .

ــ ماذا حدث ؟

أجابه (عادل) ، وهو يسرع نحو الباب :

ــ إنه (عصام) .

هتف (مدحت) فى توتُّر :

ــ ماذا أصابه ؟

صاح (عادل) فى صوت غاضب :

ــ لقد تعرَّض لحادث مميت .

ثم أردف ، وهو يعبُر الباب فى حِدَّة :

ــ وسيدفع المجرم الثمن .. أُقسم على ذلك .

* * *

كان الظلام الدامس يحيط بـ (عصام) من كل الجهات ، مع صمت وسكون رهيبين ، وفجأة بَدت بارقة ضوء ..

خيط ضوئى اتسع وتعاظم ، ليصنع بقعة ضوئية كبيرة ، اختلطت بصوت مُبهم يأتى من بعيد ، لم تلبث حروفه أن تميَّزت ، لتتَّضح لـ(عصام) جملة تقول بصوت مألوف :

ــ أخى .. حمدًا لله .. إنك حىّ ..

أخوه ؟!..

بدت الكلمة عجيبة للغاية فى أُذنى (عصام) ، فهو وحيد والديه ، بلا إخوة أو أخوات ، وعلى الرغم من ذلك ، فالصوت الذى يخاطبه بذلك اللَّقب يبدو مألوفًا ..

ولم يعترض (عصام) ، وإنما راح يفتح عينيه فى بطء ، محاولًا تمييز تلك الأشكال المشوَّهة أمامه ..

وفى بطء ، راحت الصورة تتضح ، وتكتمل ..

لقد كان يرقد فى فراش طبّىّ ، وحوله طبيب ، وممرِّضة ، والمشتبه فيهم الأربعة الباقــون (فارس) ، و (يٰس) ، و (جلال) ، و (طارق) ، و .....

و ((عادل محمود) ..

وتعلَّق بصر (عصام) بهذا الأخير ، وهو يقول فى لهفة :

ــ حمدًا لله على نجاتك يا أخى .

ابتسم (عصام) ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ــ شكرًا يا أخى العزيز .

ثم تلفَّت حوله ، مستطردًا فى حَيْرَة :

ــ أين أنا ؟

أجابه الطبيب مبتسمًا :

ــ فى مستشفى (رأس التين) الحربى أيها الملازم .. لقد نجوت من الموت بأعجوبة .

غمغم (عصام) فى دهشة :

ــ الموت ؟!.

وفجأة ، سار أمام عينيه شريط سينمائى ، يعرض كل المشاهد التى تعرَّض لها منذ غاص إلى الأعماق ..

ومرَّة أخرى هتف فى حَنَق :

ــ الموت ؟!

ثم هَبَّ من فراشه ، مستطردًا فى غضب :

ــ نعم .. لقد حاول أحدهم قتلى ، وقتل الملازم (أيمن) أيضًا .

هتف (عادل) فى لهفة :

ــ وهل رأيته ؟.. هل رأيت ذلك القاتل ؟

أجابه (عصام) فى انفعال :

ــ نعم .. رأيته .

ثم أشار إلى أحد المشتبه فيهم الأربعة ، هاتفًا فى غضب :

ــ ها هو ذا .

استدارت عيون الجميع إلى حيث يشير ، واتسعت عيونهم فى دهشة ، فقد كان يشير إلى الضابط الوحيد الباقى ، وسط المشتبه فيهم ..

إلى (طارق) ..

* * *

٩ ــ المتهم ..

لوهلة ساد صمت رهيب داخل المكان ، وامتقع وجه (طارق) ، وشحُب فى شدّة ، حتى بات أشبه بوجــوه الموتى ..

ثم انطلق هتاف مذعُور ..

هتاف (طارق) :

ــ أنا ؟!

صاح (عصام) فى غضب :

ــ نعم .. أنت .. أنت قتلت (أيمن) ، وأنت تظنّه أنا فى الظلام ، ثم حاولت قتلى بعد ذلك .

هتف (طارق) فى ذعر :

ــ ولكننى أنقذت حياتك ، وكان من المستحيل أن أقتل (أيمن) فلقد لقِىَ مصرعه فى حجرة التوربينات الخلفية ، حيث كنتما تعملان معًا ، وكنت أنا فى غرفة المحرّكات الأمامية ، ولو سبحت إليكما ، لكان من الضرورى أن يرانى (فارس) ، أو

(يُس) ، أو (جلال) ، فلقد كانوا يعملون فى حجرات ملحقة بالممرّ الوحيد ، الذى يقود من عندى إليكما .

قال (عصام) فى صرامة :

ــ يمكنك إطفاء مصباحك ، والعبور فى حرص ..

صاح (طارق) فى ارتياع :

ــ ولكننى لم أفعل .. لقد أنقذت حياتك ، ولو أننى أبغى قتلك ، لتركتك تموت .

هتف (عصام) فى حَنَق :

ــ ومن قال إنك قد أنقذت حياتى ؟.. لقد كنت تحاول منعى من الصعود إلى السطح ، لأختنق فى الأعماق .

لوَّح (طارق) بذراعيه ، وهو يهتف :

ــ خطأ .. لقد كنت أحاول منعك من قتل نفسك بالانسداد الهوائى .

امتقع وجه (عصام) بغتة ، وهو يغمغم :

ــ ماذا ؟!

تابع (طارق) فى مرارة :

ــ لو أننى أبغى قتلك ، ما حاولت منعك من الصعود إلى السطح .. لقد كنت تصعد بسرعة كفيلة بتكوين فقّاعات

النيتروجين فى عروقك ، وقتلك بانسداد القلب الهوائى ، ولكننى أسرعت أمنعك ، حتى نصعد معًا تدريجيًا ، وكنت سأتبادل معك استنشاق الهواء من أسطوانتى ، ولكننى فوجئت بك تقاتلنى ، فتصوَّرت أن الرُّعب قد أصابك بانهيار عصبىّ ، كما يحدث مع الغرق عادة ، وحاولت إجبارك على الخضوع ، إلا أنك قاتلتنى فى عُنف ، وأفلتَّ منّى ، وصعدت إلى السطح بسرعة .

غمغم (عصام) فى ارتياع :

ــ يا إلٰهى !!

أكمل الطبيب الحديث ، قائلًا :

ــ ولقد أصابك الانسداد الهوائى ، فلا ريب أنك قد شعرت بآلام فى ذراعك اليسرى وأسنانك ، و .....

هتف (عصام) :

ــ هذا صحيح .

أجابه الطبيب فى هدوء :

ــ إنها أعراض الأزمة القلبية ، المصاحبة للانسداد الهوائى ، ولقد أمكننا إنقاذك ، بوَضْعك داخل حجرة الضغط المرتفع ، وتخفيف الضغط عنك تدريجيًا ، ولولا إعاقة

(طارق) لك ، لكان الانسداد أضخم مما يمكننا معالجته ، وللقيت حَتْفَكَ حتمًا .

شحب وجه (عصام) ، والتفت إلى (طارق) مغمغمًا فى خجل :

ــ إننى أعتذر .

لوَّح (طارق) بكفِّه ، وهو يقول :

ــ لا عليك .. إن اتهامك كان يحمل بعض الحقيقة .

سأله (عصام) :

ــ أيَّة حقيقة ؟

أشار (طارق) إلى الثلاثة الآخرين ، قائلًا فى حزم :

ــ إن أحدنا قاتل .

* * *

لم يكد الجميع ينصرفون ، ويتركون (عادل) و (عصام) وحدهما ، حتى ابتسم (عادل) ، وربَّت على كتف (عصام) بحنان أبوى ، مغمغمًا :

ــ حمدًا لله على سلامتك يا بطل .

تنهَّد (عصام) ، مغمغمًا :

ــ لقد كانت تجربة رهيبة .

أومأ (عادل) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ نعم .. ولقد راح ضحيتها (أيمن) المسكين .

ثم اعتدل ، وهو يستدرك فى اهتمام :

ــ ولكنها تؤكّد أننا نسير فى الطريق الصحيح .

تمتم (عصام) فى شُرُود :

ــ لَمْ أشك فى هذا لحظة .

ثم التفت إلى (عادل) ، يسأله فى اهتمام :

ــ من يمكن أن يكون القاتل فى رأيك ؟

مطَّ (عادل) شفتيه ، وقال :

ــ شخص يجيد الغوص .

سأله (عصام) فى اهتمام :

ــ لماذا ؟

اعتدل (عادل) فى مجلسه ، وقال فى جِدّية :

ــ الوقت الذى استغرقه الأربعة تحت الماء ، يكفى بالكاد ليتمَّ كل منهم مهمَّته ، ولو أن أحدهم قد انفصل عن مكانه ، ليتجه إليكما ، ويشتبك معكما ، ثم يقتل (أيمن) ، ويتم مهمَّته الأصلية الرسمية فى الوقت ذاته ، فمن الضرورى أن يكون ممن يجيدون الغوص .

تمتم (عصام) فى شُرُود :

ــ لَمْ أشك فى هذا لحظة .

أكمل (عصام) فى حماس :

ــ وهو ليس (طارق) بالطبع ، فلو أراد قتلى لتركنى أصعد إلى السطح فى سرعة ، وكان هذا يكفى لإنهاء حياتى ، دون أن تشير إليه أصابع الاتهام .

عقد (عادل) حاجبيه مفكِّرًا ، قبل أن يغمغم :

ــ طبقًا للمنطق نفسه ، يمكننا استبعاد (جلال) أيضًا ، فهو حديث العهد بالبحرية ، وهذا يَعْنِى أنه يفتقر إلى الخبرة الكافية فى فنِّ الغوص ..

هتف (عصام) فى انفعال :

ــ عظيم .. هذا يقصر دائرة البحث على رجلين .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى صرامة :

ــ (فارس) و (يُس) ..

وزفر فى قوة ، مردفًا فى حزم :

ــ وويل للخائن منهما .

* * *

بدا (طارق) صامتًا مهمومًا ذلك المساء ، وهو يجلس فى قاعة الطعام بالمدمِّرة ، فاقترب منه (يُس) ، وغمغم فى توتُّر :

ــ أما زلت تفكِّر فى الملازم (أيمن) يا سيِّدى ؟

رفع (طارق) عينيه إليه ، وتطلَّع إليه لحظة فى شُرُود ، ثم غمغم :

ــ بل فى الملازم (عصام) يا (يُس) .

تلفَّت (يُس) حوله ، كما لو كان يخشى أن يراه أحد بصحبة (طارق) ، قبل أن يجذب مقعدًا ، ويجلس إلى جواره ، ويميل نحوه ، هامسًا :

ــ أنا أيضًا أشكُّ فى أمره يا سيِّدى .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى صرامة :

ــ وهذا الرجل ، الذى زاره فى المستشفى ، ليس شقيقه .

التفت إليه (طارق) فى حركة حادَّة ، وسأله :

ــ كيف عرفت ؟

عاد (يُس) يتلفَّت حوله ، قبل أن يهمس :

ــ إنه يعمل فى مباحث أمن الدولة .

فغر (طارق) فاهُ فى دهشة عارمة ، وهو يغمغم :

ــ يا إلهى !!.. كيف عرفت هذا أيضًا ؟

أشار إلى صدره ، قائلًا :

ـ أنسيت يا سيِّدى أننى و (فارس) كنا نعمل فى المخابرات الحربية ؟.. وأننا كنا نعرف تقريبًا كل العاملين بها ؟.. لقد شاركنا فى عدَّة عمليات ، تمت بالتعاون مع المباحث العامة ، وفى إحدى العمليات كان هذا الشقيق المزعوم يقودنا ، وهو رجل رهيب ، يُدعى (عادل محمود) .

غمغم (طارق) فى ارتياع :

ـ يا إلٰهى !!

ثم أردف فى جَزَع :

ـ هذا يَعْنِى أن .....

قاطعه (يٰس) فى حزم :

ـ إن مهمَّة (عصام) هذا هى مراقبتنا ، لصالح مباحث أمن الدولة .

عقد (طارق) حاجبيه ، وهو يقول فى حِدَّة :

ـ ليس لمباحث أمن الدولة أيَّة سلطات علينا .. إننا نتبع وزارة الدفاع فحسب .

غمغم يا (يٰس) فى خُبث :

ـ هذا لو أن مباحث أمن الدولة تعمل وحدها .

سأله فى ذُعر :

ـ ماذا تَعْنِى ؟

مال (يٰس) نحوه ، وغمغم فى لهجة تمنح الأمر أبعادًا شديدة الخطورة والأهمية :

ـ أعْنِى أنه لو أن مباحث أمن الدولة تعمل بتكليف من وزارة الدفاع ، فالأمر يتساوى .

واعتدل فى هدوء ، مستطردًا فى حزم :

ـ إنهم يعدُّون لنا كمينًا .

اتسعت عينا (طارق) فى ذُعر ، ودون أن يتبادل كلمة واحدة مع (يٰس) ، اتفقت أفكارهما على نقطة واحدة ..

إن وجود (عصام) أمر خطير ..

بل بالغ الخطورة ..

* * *

لقد انتزع واجهة جهاز الاتصال ، وحلَّ مفتاح الكهرباء القريب منها ، ثم أخذ طرفى السلك المكهرب ، وراح يُوصِّلهما بأزرار الجهاز ..

١٠ ــ محاولة قتل ..

كانت عقارب الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل بقليل ، عندما تسلَّل شخص ما من عنابر النوم ، عَبْرَ سطح المدمِّرة ، إلى حجرة الاتصالات ، وراح يعالج رِتاجها بآلة خاصة ، فى مهارة بالغة ، حتى فتحه ، فدلف إلى الحجرة ، وأغلق الباب خلفه فى إحكام ، وبقى صامتًا مكانه عدَّة دقائق ، قبل أن يلتقط من جيبه مصباحًا يدويًّا صغيرًا ، ويشعله ، ويدور به فى أرجاء الحجرة ، قبل أن يتوَّقف عند أجهزة الاتصال الرئيسية ، ويغمغم :

ــ مَرْحَى أيها الصحفى ، ما دمت تتقمّص شخصية ضابط اتصالات ، فلتلْقَ حَتْفَك بالأسلوب نفسه .

وفى هدوء ، أخرج أدواته ، وشرع يعمل فى سرعة ومهارة ..

لقد انتزع واجهة جهاز الاتصال ، وحلَّ مفتاح الكهرباء القريب منها ، ثم أخذ طرفى السلك المكهرب ، وراح يُوصِّلهما بأزرار الجهاز فى اهتمام شديد ، حتى انتهى ، فأعاد الواجهة إلى موقعها ، وأحكم تثبيتها ، وابتسم فى وحشية ، متمتمًا :

ـــ والآن أيها الصحفى الهُمام ، ستكون لديك فرصة واحدة ، للضغط على زِرّ الاتصال ، وبعدها ..

أصدر من بين أسنانه صوتًا أشبه بصاعقة كهربية عنيفة ، وعاد يبتسم فى شراسة ساخرة ، وهو يتجه نحو باب الحجرة ، ووقف خلفه لحظات فى حَذَر ، ثم دفعه ، وغادر المكان فى سرعة ، وأغلق الباب خلفه فى إحكام ، وأسرع يتسلَّل عائدًا إلى حجرته ..

وهناك ، على بعد أمتار منه ، وداخل منطقة مُظلمة ، رفع رجل آخر حاجبيه فى دهشة ، وغمغم :

ـــ عجبًا !!.. ما الذى يفعله هذا هنا ؟

صمت لحظة ، محاولًا معرفة الجواب ، ثم لم يلبث أن هزَّ كتفيه ، وكأنما الأمر لا يَعْنِيه ، وعاد يتطلَّع إلى البحر الممتد أمامه إلى ما لا نهاية ..

وفى تلك الليلة ابتسم الشيطان ..

ابتسم فى سعادة وهناءة ..

* * *

شعر (عصام) بالسعادة ، وهو يعود إلى المدمَّرة فى الصباح التالى ، حيث استقبله البحَّارة والضباط بالسعادة

والمرح ، وتمنَّى لو أنه يحمل رتبة ضابط بحرى حقًا ، ليعيش وسط هذا الجو المُفْعَم بالمحبَّة والتآخى والمرح ..

ولم يكد هذا الخاطر يستقرّ فى أعماقه ، حتى راح ينفضه فى قوة ، عندما طالعه وجه القبطان الصارم ، وهو يقول فى خشونة :

ـــ أهلًا بعودتك أيها الملازم .

كان (عصام) واثقًا من أن القبطان لم يأتِ لتحيته فقط ، ولقد أيقن من صحة استنتاجه هذا ، عندما أضاف القبطان فى صرامة :

ـــ أريدك فى قمرتى الخاصة .

رفع (عصام) يده بالتحية ، وهو يقول :

ـــ على الفور يا سيِّدى .

كاد ينفجر ضاحكًا ، على مرأى نظرات الإشفاق ، التى أحاطت به ، عندما انصرف القبطان ، فابتسم ، قائلًا فى مرح :

ـــ إنه لن يلتهمنى حيًّا .. أليس كذلك ؟

ضحك الجميع لتعليقه ، على حين أسرع هو يلحق بالقبطان فى قمرته ، ولم يكد يدلف إليها حتى استقبله القبطان بنظرة صارمة ، وهو يقول :

ـــ اجلس أيها الملازم ، أريد أن أتحدَّث إليك .

جلس (عصام) فى طاعة ، وظلَّ يتطلَّع إلى القبطان ، الذى وقف أمام نافذة قمرته ، يتطلَّع إلى البحر فى هدوء ، قبل أن يقول فى حِدَّة :

ـــ من أنت أيها الملازم ؟

ـــ أدهش السؤال (عصام) فى شدَّة ، فأجـــاب فى ارتباك :

ـــ الملازم (عصام عبد الحميد) يا سيِّدى .. ضابط اتصالات ، و .....

قاطعه القبطان ، وهو يستدير إليه فى صرامة :

ـــ لست أسألك عن بياناتك المدوَّنة هنا ، بل أسألك من أنت ؟ وهذا يَعْنِى الحقيقة .

خفق قلب (عصام) فى شدَّة ، وهو يغمغم :

ـــ أيَّة حقيقة يا سيِّدى ؟

ضرب القبطان سطح مكتبه بقبضته ، وهو يقول فى عصبيَّة :

ـــ حقيقة من تكون ؟

عقد (عصام) حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

ـــ ليست لدىّ حقيقة ، سوى ما أقول يا سيِّدى .

اعتدل القبطان ، وهو يحدجه بنظرة صارمة ، ثم أشاح بوجهه عنه ، وقال فى صوت يحمل نبرات ساخطة :

ـــ اسمع أيها الملازم .. من سُوء حظِّك أن قائد قاعدة (سفاجة) صديق شخصى لى ، ولقد التقيت به أمس ، وهو فى إجازته هنا ، وعندما جاء ذكر اسمك فى الحديث ، أكَّد الرجل أنه لم يسمع به قَطُّ ، فما قولك فى هذا ؟

قال (عصام) فى حزم :

ـــ ليس من المفترض أن يعرف القائد أسماء كل جنوده .

قال القبطان فى حِدَّة :

ـــ هكذا ؟!

ثم استدار يتطلَّع مرَّة أخرى ، عَبْرَ نافذة قمرته ، وإن بدا من الواضح أن قبضتيه ، المضمومتين خلف ظهره ، تنقبضان فى شدَّة وعصبيَّة ، قبل أن يقول ، فى صوت بذل أقصى جهده ؛ ليصبغه بطابع الهدوء :

ـــ أهِىَ مهمَّة رسمية ؟

أجابه (عصام) فى هدوء :

ـــ بالتأكيد .

التفت إليه القبطان فى حِدَّة ، وبرقت عيناه ببريق الظَّفَر ، وهو يقول :

ـــ إذن فأنت تعترف .

ابتسم (عصام) ، وهو يقول :

ـــ أعترف بماذا يا سيِّدى ؟

أشار إليه القبطان ، وهو يهتف فى عصبيَّة :

ـــ بأنك هنا فى مهمَّة رسمية .

هزَّ (عصام) كتفيه ، وهو يقول :

ـــ كل من يلتحق بالقوات المسلحة فى مهمَّة رسمية يا سيِّدى .

عقد القبطان حاجبيه فى شدَّة ، وهو يقول :

ـــ وخاصة من يعملون فى المخابرات الحربية .

عاد (عصام) يهزّ كتفيه ، قائلًا فى هدوء :

ـــ بالتأكيد ، ولكننى لم أتشرف بالعمل معهم أبدًا .

ازداد انعقاد حاجبى القبطان ، وهو يقول فى غضب :

ـــ هكذا ؟!

ثم اعتدل مستطردًا فى صرامة :

ـــ اسمع أيها الملازم .. لقد حدث الكثير منذ التحقت بمدمِّرتى ، منذ يومين فقط ، ومنه ما لم يحدث هنا أبدًا ، مثل سقوطك فى البحر مثلًا ، ومقتل أحد الضباط ، فى عملية غَوْص

عادية .. وأنا لست قليل الخبرة ، بحيث لا أنتبه إلى أن هذا يَعْنِى شيئًا واحدًا .

وامتزج الحزم بالصرامة فى صوته ، وهو يردف :

ـــ أنك تعمل لحساب جهة خاصة .

صمت (عصام) لحظات ، ثم قال فى هدوء :

ـــ لو أن هذا صحيح ، فأظنه لا يسىء إلى أحد يا سيِّدى ، فكلنا نعمل لصالح هذا الوطن .. أليس كذلك ؟

رَانَ الصمت لحظة ، قبل أن يقول القبطان فى ضيق :

ـــ بلَى .

ثم عاودته عصبيَّته ، وهو يلتقط من درج مكتبه ورقة كبيرة ، قائلًا :

ـــ ولكنك تقوم هنا بدور ضابط اتصال ، على كل الأحوال .. أليس كذلك ؟

غمغم (عصام) فى هدوء :

ـــ هذا صحيح .

دفع القبطان الورقة أمامه ، وهو يقول :

ـــ فلنختبر كفاءتك إذن .

تطلّع (عصام) إلى الورقة المكتظة فى قلق ، على حين ارتفع صوت القبطان ، وهو يقول فى حدّة :

ـــ سترسل كل هذه المعلومات إلى المدمّرة (نهار) .

ثم مال نحو (عصام) ، مستطردًا فى حزم :

ـــ الآن .

تناول (عصام) الورقة ، ونهض يؤدى التحية العسكرية ، مغمغمًا :

ـــ كما تأمر يا سيِّدى .

وأسرع يغادر قمرة القبطان ، وهو يشعر باضطراب شديد ..

صحيح أنه قد تلقَّى درسًا سريعًا ، على أجهزة الاتصال ، التابعة لمباحث أمن الدولة ، إلا أنه لم يبدأ عملًا حقيقيًّا بعد ..

وهو يخشى أن يكشف نفسه بأى خطإ ..

وعلى الرغم من قلقه وتوتُّره ، فقد اتجه إلى حجرة الاتصالات ، وألقى نظرة على الرجال الثلاثة داخلها ، وتبادل معهم التحية ، قبل أن يقول :

ـــ أين (فارس) ؟

أجابه (جلال) فى هدوء :

ـــ لقد ذهب يستنشق بعض الهواء على السطح .

ابتسم (عصام) ، وقال وهو يجلس أمام جهاز الاتصال :

ـــ يا لحُسن حظِّه !. أظنّنى سأقضى ساعتين على الأقل ، لنقل هذه الرسالة ، قبل أن ألحق به .

ابتسم الرجال الثلاثة ، وتطلّعوا إليه ، وهو يضغط أوّل أزرار جهاز الاتصال ، و .....

ودوّى الانفجار ..

* * *

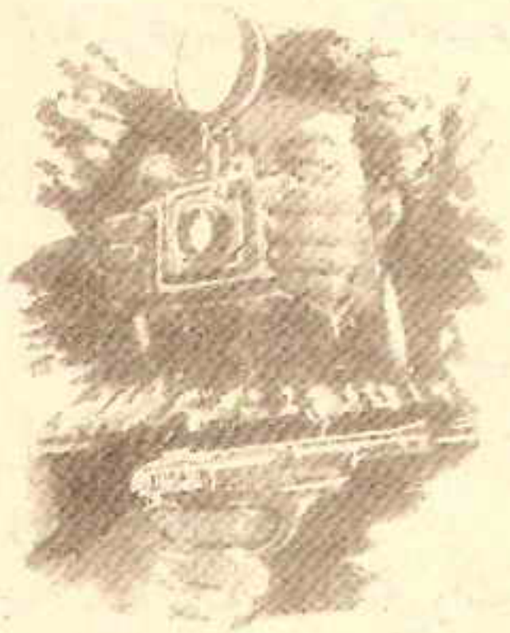

١١ ــ التضارب ..

لم يكن الانفجار قويًا ، ولكن رد الفعل اللّاحق له كان كذلك ..

لقد سمع الجميع صوت انفجار جهاز الاتصال ، ورأوا الدُّخان يتصاعد من الحجرة ، فساد الهرج والمرج ، وهم يندفعون إليها من كل صَوْب ، وعشرة منهم يحملون أسطوانات إطفاء الحريق ..

واندفعت المادة الرغوية داخل الحجرة ، ثم اندفع الرجال ..

وتمت عملية الإنقاذ فى سرعة ..

كان (عصام) أكثر المصابين ، إذ تلقَّى الانفجار كله فى صدره ، وأصابته شظية بين ذراعه وجانب صدره الأيمن ، ودفعه الانفجار إلى الركن المقابل للحجرة ، حيث ارتطم بـ (طارق) ، وسقط الاثنان أرضًا ..

وأصيب (جلال) إصابة طفيفة فى رأسه ، من جرَّاء

ارتطامه بالحائط ، على حين لم يصب (يُس) بأكثر من صدمة المفاجأة ..

وبينما كان البحَّارة ينقلون (عصام) إلى محفَّة خاصة ، لنقله إلى المستشفى البحرى ، هتف أحدهم :

ــ إنه يتمتم بعبارة ما ..

وأدنى أُذنه من فم (عصام) ، وهو يقول :

ــ ماذا تريد يا سيادة الملازم ؟

هتف (عصام) بكلمة واحدة :

ــ (فارس) .

ثم غاب عن الوعى ..

* * *

تحرَّك (عادل محمود) فى عصبيَّة بالغة ، أمام حجرة العمليات بالمستشفى البحرى ، وهو يغمغم فى غضب :

ــ سيدفع القاتل الثمن ، لو أصيب (عصام) بأدنى مكروه .. أُقسم أن أجعله يدفع الثمن .

كان يردِّد العبارة نفسها فى عصبيَّة ، حتى اقترب منه زميله (مدحت) ، وقال فى اهتمام :

ــ ألَمْ يغادر حجرة العمليات بعد ؟

أجابه (عادل) فى توتُّر :

ــ ليس بعد .

ثم سأله فى اهتمام :

ــ ما نتيجة فحص جهاز الاتصال ؟

تنهَّد (مدحت) ، وهو يقول :

ــ كما توقَّعنا .. تخريب متعمَّد .. لقد أوصل أحدهم أسلاك الكهرباء بأزرار الجهاز .

غمغم (عادل) فى غضب :

ــ الوغد ..

لم يكد يلقِى كلمته الغاضبة ، حتى غادر الطبيب حجرة العمليات ، فالتفت إليه (عادل) و (مدحت) فى لهفة ، وهتف به الأوَّل :

ــ كيف حاله يا دكتور ؟

هزَّ الطبيب رأسه ، وهو يقول :

ــ لست أدرى كيف أصف شقيقك يا سيِّد (عادل) .. أأقول إنه سيِّئ الحظ أم أقول إنه حَسَن الحظ ؟

سأله (عادل) فى دهشة :

ــ ماذا تعنِى يا دكتور ؟

عاد الطبيب يهزّ رأسه ، قائلًا :

ــ لقد كان من الطبيعى أن يقتله الانفجار ، إلا أن إصابته جاءت أقلّ من المفترض بكثير ، بحيث اقتصر الأمر على استخراج شظية صغيرة ، دون أن تصاب أى من الشرايين الرئيسية ، حتى أنه من الممكن أن يعود إلى عمله بعد أسبوع واحد ، وهذا يُعَدُّ من حُسْنِ الحظّ ، على حين تأتى إصاباته المتكرِّرة ، والمخاطر التى تعرَّض لها ، خلال يومين فقط من العمل ، فى مصافّ سوء الحظ ، فبمَ أصفه ؟

تنهَّد (عادل) فى ارتياح ، وهو يقول :

ــ بالبطولة .

حدَّق الطبيب فى وجهه بدهشة ، وهو يغمغم :

ــ ماذا ؟!

أومأ (عادل) برأسه ، على نحو بدا بلا أى معنى خاص ، وهو يقول :

ــ عندما تعلم قصته كلها ، ستصفه حتمًا بالطولة أيها الطبيب .

وصمت لحظة ، قبل أن يستطرد فى حزم :

ــ كما أصفه أنا الآن .

* * *

فى تلك الليلة ، على ظهر المدمِّرة ، وقف أحد المشتبه فيهم يرتكن إلى حاجز السطح ، متطلِّعًا إلى البحر ، على ضوء القمر ، حتى اقترب منه رجل آخر ، ووقف إلى جواره صامتًا ، ثم ارتكن بدوره إلى حاجز السطح ، وغمغم فى توتُّر :

ــ هل تشعر بالارتياح ؟

غمغم الأوَّل فى هدوء :

ــ بالتأكيد ، فالمشهد بديع .

رَانَ الصمت لحظة ، ثم قال الثانى فى حِدَّة :

ــ خاصة أنك قد انتصرت .

ابتسم الأوَّل فى هدوء ، وهو يقول :

ــ وما وجه الانتصار ؟

أجابه الثانى فى توتُّر :

ــ انتصرت على (عصام) .

هزَّ الأوَّل كتفيه ، وهو يقول فى هدوء :

ــ وما شأنى به ؟.. لقد انفجر جهاز الاتصال فى وجهه ، و .....

قاطعه الثانى فى حِدَّة :

ــ لِمَ فعلت ذلك ؟

ابتسم الأوَّل فى سُخرية ، أخفاها الظلام ، وهو يقول :

ــ فعلت ماذا ؟

التفت إليه الثانى ، وهو يقول فى غضب :

ــ لماذا دبَّرت لقتله ؟

لم تَغِب ابتسامة الأوَّل ، وهو يقول :

ــ من وضع فى رأسك تلك الفكرة الحمقاء ؟

هتف الثانى فى حَنَق :

ــ لقد رأيتك .

تلاشت ابتسامة الأوَّل ، وانعقد حاجباه فى شراسة ، وهو يلتفت إلى الثانى ، مغمغمًا :

ــ رأيتنى ؟!

أجابه الثانى فى حِدَّة !

ــ نعم رأيتك تتسلَّل إلى حجرة الاتصالات ، بعد منتصف ليل أمس بقليل ، وتقضى هناك بعض الوقت ، ثم تتسلَّل خارجًا .

زمجر الأوَّل ، وهو يقول فى شراسة :

ــ لعلك أخطأت ، فأنا لم أفعل ذلك .

قال الثانى فى حِدَّة :

ـــ بل فعلته .. إننى لن أخطئ تعرُّفك .

رَانَ الصمت لحظة ، ثم قال الأوَّل فى برود ، يحمل نبرة شرسة :

ـــ ما الذى تنوى أن تفعله إذن ؟

قال الثانى فى صرامة :

ـــ سأبلغ القبطان .

رَانَ الصمت لحظة أخرى ، ثم التفت الأوَّل إلى الثانى ، وقال فى سُخرية مخيفة :

ـــ هكذا ؟!

ارتجف جسد الثانى ، على صوت حفيف مفاجئ ، جعله يهتف فى ذُعر :

ـــ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ابتسم الأوَّل ابتسامة مخيفة ، وهو يقول :

ـــ المنطقى يا صديقى .

وارتفعت قبضته ، وهى تحمل مُدْية حادَّة ، وقبل أن يصرخ الثانى مستنجدًا ، أو يتراجع هاربًا ، هَوَت المُدْية على صدره ، وغاصت فى قلبه حتى مقبضها ..

* * *

وقبل أن يصرخ الثانى مستنجدًا ، أو يتراجع هاربًا ، هَوَت المُدْية على صدره ، وغاصت فى قلبه حتى مقبضها ..

استعاد (عصام) وعيه فى منتصف الليل تقريبًا ، وأدهشه كثيرًا أنه ما يزال حيًّا ، وهو يتطلَّع إلى المكان من حوله ، حتى سمع صوتًا مرهقًا يقول :

ــ حمدًا لله على سلامتك .

التفت يمينه ، فوقعت عيناه على (عادل) ، الذى بدا شديد الإرهاق ، وقد نزع عنه سترته ، وأرخى رباط عنقه ، فغمغم (عصام) :

ــ هل نجوت مرَّة أخرى ؟

ابتسم (عادل) ، وهو يغمغم :

ــ عُمرُ الشَّقِى بَقِى يا صديقى .

ابتسم (عصام) فى ألم ، وهو يغمغم :

ــ يبدو أنك على حقّ .

رَانَ عليهما الصمت لحظة ، ثم قال (عادل) فى اهتمام :

ــ لقد كان حادثًا متعمَّدًا .

مطَّ (عصام) شفتيه ، وهو يغمغم :

ــ لم يدهشنى ذلك .

غمغم (عادل) :

ــ لقد باتَ من الواضح أن أمرك قد كُشِف يا (عصام) .

ابتسم (عصام) ، وأرخى جفنيه ، وهو يقول :

ــ هذا أيضًا لم يدهشنى ، فلقد أدركته منذ أوَّل محاولة قتل .

رَانَ الصمت لحظة أخرى ، قبل أن يقول (عادل) :

ــ لن تتعرَّض لمحاولة قتل أخرى .

هزَّ (عصام) كتفيه ، وهو يقول :

ــ من يدرى ؟

تردَّد (عادل) لحظة ، ثم قال :

ــ لقد ألغيت مهمَّتك .

انتفض جسد (عصام) ، وهو يهتف فى ذُعر :

ــ ماذا ؟

أجابه (عادل) فى حزم :

ــ اللَّعب بأوراق مكشوفة لا يناسب عملياتنا يا (عصام) ، وما دام أمرك قد كُشِف ، فَهذا يَعْنِى إلغاء المهمّة .

ردَّد (عصام) فى مرارة :

ــ إلغاء المهمَّة ؟!

ثم لم تلبث عيناه أن برقتا فجأة ، وهو يهتف :

ـــ ولكنها لم تُلْغ وإنما انتهت بنجاح .

عقد (عادل) حاجبيه وهو يقول :

ـــ ماذا تَعْنِى يا (عصام) ؟

هتف (عصام) فى حماس :

ـــ لقد كشفت الخائن .. عرفت من هو .

حدَّق (عادل) فى وجهه بذُهُول ، ثم انحنى يمسك كتفيه فى قوة ، وهو يهتف به :

ـــ من هو يا (عصام) ؟.. من هو ؟

أجابه (عصام) فى حزم :

ـــ (فارس) .

تجمَّدت ملامح (عادل) بغتة ، وتراجع فى مقعده ، وهو يغمغم :

ـــ (فارس) ؟!

ومطَّ شفتيه ، وعقد حاجبيه لحظة ، وهـــو يسأل (عصام) :

ـــ ولماذا (فارس) بالذات ؟

أجابه (عصام) فى انفعال :

ـــ لأن الشخص الذى دبَّر ذلك الحادث ، كان يعلم أن

الجهاز سينفجر ، لذا فقد ابتعد عن الحجرة كلها ، حتى لايصاب معنا ، والشخص الوحيد الذى لم يكن داخل الحجرة ، عندما انفجر الجهاز ، هو (فارس) ، الذى اختفى بحجة واهية ، ألا وهى استنشاق الهواء .

صمت (عادل) لحظة ، وهو يتطلَّع إلى (عصام) فى هدوء ، ثم غمغم :

ـــ نظرية معقولة تمامًا ، لولا أن .....

سأله (عصام) فى توتُّر :

ـــ لولا أن ماذا ؟

مطَّ (عادل) شفتيه ، قائلًا :

ـــ لولا أن (فارس) قد قُتِلَ منذ ساعة واحدة ، بطعنة مُدية فى قلبه مباشرةً ..

★ ★ ★

١٢ ــ الشكوك ..

اتسعت عينا (عصام) فى ذُهُول ، وهو يحدِّق فى وجه (عادل) ، بعد أن ألقَى عبارته الأخيرة ، ورَانَ صمت مخيف على الحجرة ، قبل أن يغمغم (عصام) :

ــ قُتِلَ ؟!

واختنق صوته ، وتحشرج ، وهو يستطرد :

ــ من قتله ؟

تنهَّد (عادل) ، وهو يقول :

ــ الخائن الحقيقى بالتأكيد .

غمغم (عصام) فى حَنَق :

ــ اللَّعنة !

ثم اعتدل بغتة ، وهو يستطرد فى انفعال :

ــ ولكن هذا يَعْنى أن الشُّبهات تنحصر الآن فى رجل واحد .

برقت عينا (عادل) ، وهو يقول فى حماس :

ــ (يُس) .

ثم هبَّ من مقعده ، واندفع نحو باب الحجرة ، هاتفًا :

ــ يبدو أننا لن نلغى المهمَّة بالفعل يا (عصام) .

وغمز بعينه ، وابتسم ، قبل أن يستطرد :

ــ بل سنهيها .

وأغلق الباب خلفه فى حماس ..

* * *

ارتكن (طارق) إلى حاجز سطح المدمِّرة ، يتطلَّع إلى البحر ، الممتدّ أمامه إلى ما لانهاية ، ولم يلتفت إلى (يُس) ، الذى ارتكن إلى جواره فى صمت ، حتى غمغم (يُس) فى هدوء :

ــ أظن أن السيِّد (عصام) لن يعود إلى هنا أبدًا .

غمغم (طارق) :

ــ لماذا ؟

ابتسم (يُس) ، وهو يقول :

ــ لأنه يعلم الآن أننا قد كشفنا أمره .

هزَّ (طارق) كتفيه ، مغمغمًا :

ــ هذا شعور الجميع .

التفت إليه (يُس) ، يسأله فى اهتمام :

ـــ أتعنى أن الجميع يعلمون الآن ، أنه يعمل لحساب مباحث أمن الدولة ؟

مطَّ (طارق) شفتيه ، وقال :

ـــ ليس بالضرورة ، ولكنهم واثقون من أنه يعمل لحساب جهة ما .

ارتسمت ابتسامة ارتياح على شفتى (يٰس) ، وهو يغمغم :

ـــ هذا أفضل .

وفجأة ، انعقد حاجباه ، وهو يتطلَّع إلى جهة ما ، مغمغمًا :

ـــ انظر .

رفع (طارق) عينيه إلى حيث يشير (يٰس) ، ثم لم يلبث حاجباه أن انعقدا بدورهما ، وهو يغمغم فى توتُّر :

ـــ عجبًا !!.. أليس هذا هو شقيق (عصام) ؟

هتف (يٰس) فى توتُّر :

ـــ إنه (عادل محمود) ، رجل المباحث العامة .

تراجع (طارق) ، وهو يقول فى توتُّر :

ـــ ما الذى يفعله هنا ؟.. إنه يصعد إلى السطح ، ويتجه إلينا مباشرة ، مع رجال البوليس الحربى .

تجمَّد الاثنان فى مكانهما ، حتى بلغهما (عادل) ورجال البوليس الحربى ، وقال (عادل) فى صرامة ، وهو يضع يده على كتف (يٰس) :

ـــ إننى أُلقِى القبض عليك .

هتف (يٰس) فى دهشة :

ـــ أنا ؟!.. بأيَّة تُهمة ؟

أجابه (عادل) فى صرامة :

ـــ بتهمة التجسُّس والخيانة ، وإحراق غواصة تابعة للأسطول البحرى .

صرخ (يٰس) :

ـــ ماذا ؟.

ثم تراجع فى حِدَّة ، وهو يستطرد صارخًا :

ـــ إنكم تحاولون تلفيق التُّهمة لى .. ولكننى لن أسمح لكم .. لن أسمح لكم .

وفجأة ، اندفع (يٰس) نحو الحاجز ، وقفز من أعلاه ، وسقط فى البحر ، وغاص فى الأعماق ، فصاح (عادِل) :

ـــ الحقوا به .. امنعوه من الفرار .

انفصل (جلال) فجأة عن الجميع ، واندفع نحو الحاجز ، وقفز خلف (يٰس) ..

وغاب الاثنان طويلًا تحت سطح الماء ..

غابا حتى شعر (عادل) بالقلق ، وتصوَّر أنهما قد لَقِيَا حَتْفَهما فى أسفل ..

ثم ظهرا ..

ظهر (جلال) على السطح ، وهو يحيط عنق (يُس) بذراعه فى قوة ، وهذا الأخير فاقد الوعى ..

وبسرعة مدهشة ، تشفُّ عن مهارة رجال البحرية المصرية وبراعتهم ، تم انتشال الرجلين ، وحمل رجال البوليس الحربى (يُس) فاقد الوعى ، على حين صافح (عادل) (جلال) ، وهو يقول فى إعجاب :

ــ لقد كنت رائعًا يا (جلال) .

ابتسم (جلال) ، وهو يقول :

ــ كان من الضرورى أن أفعل ذلك يا سيِّدى .

اقترب القبطان من (عادل) ، وقال :

ــ إذن فأنت أحد رجال مباحث أمن الدولة !

أومأ (عادل) برأسه إيجابًا ، فأضاف القبطان فى اهتمام :

ــ وكذلك (عصام عبد الحميد) .

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ــ اسمه هو (عصام كامل) ، صحفى قسم الحوادث الشهير ، الذى يُوَقِّع مقالاته باسم (ع × ٢) .

هتف (جلال)

ــ يا إلٰهى !!.. (عصام كامل) .. إننى أتمنَّى أن ألتقِىَ به منذ زمن .

ثم توَّجه نحو القبطان ، مستطردًا :

ــ سيِّدى .. هل تسمح لى بالذهاب لزيارته ، بعد تجفيف ملابسى ؟

ابتسم القبطان ، وهو يقول :

ــ بلا شك .

ثم التفت إلى (عادل) ، قائلًا :

ــ أما أنت يا سيِّد (عادل) ، فأنا أدعوك لتناول قدح من الشاى ، فأنا فى أشدِّ اللَّهفة لسماع القصة .

وابتسم مستطردًا فى لهفة حقيقية :

ــ القصة كلها ..

* * *

استمع القبطان إلى قصة (عادل) فى شَغَف ، وابتسم ابتسامة واسعة فى نهايتها ، وهو يقول :

ـــ رائع أيها العقيد .. إننى أشعر بالاطمئنان على وطنى ، كلما علمت بوجود أمثالك ، وأمثال (عصام) .

وأطلق ضحكة مرحة ، قبل أن يضيف :

ـــ ولقد كانت عبقرية منك أن تستخدم هاويًا مثل (عصام) .

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ـــ لقد صار (عصام) أقرب إلى المحترفين بالفعل .

ضحك القبطان ، وهو يقول :

ـــ ماذا لو كنت قد راجعت كفايته فى الاتصالات إذن ؟

ابتسم (عادل) ، وهو يقول فى ثقة :

ـــ كنت ستجده كفؤًا إلى نحو ما ، فلقد تلقَّى تدريبًا مكثَّفًا .

هزَّ القبطان رأسه فى حَيْرَة ، وقال :

ـــ عجبًا !!.. كيف يمكن لرجل أن يتقن عملًا ، لم يعلم به إلا منذ يوم واحد ؟!

ضحك (عادل) ، وهو يقول :

ـــ إنها موهبة خاصة ، فهناك من يتقن ربع العمل ، ويتظاهر بمعرفته كله ، وهناك من يتقنه كله ، ويتظاهر بعدم معرفته ، والنوعان مطلوبان فى عملنا يا سيِّدى ، مثل .....

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى ذُعر ، وهو يهتف :

ـــ يا إلٰهى !!

وهبَّ من مقعده ، صائحًا :

ـــ لابدَّ من اللِّحاق بـ ((عصام) بأقصى سرعة .

هتف القبطان ، فى جَزَع :

ـــ لماذا ؟

صاح به (عادل) فى توتُّر :

ـــ ألم تفهم بعد ؟.. لقد خدعنا الخائن جميعًا .

هتف القبطان فى ذُهُول :

ـــ خدعنا ؟!.. أليس هو (يٰس) ؟

هتف (عادل) ، وهو يندفع نحو الباب :

ـــ كلَّا .. إنه ليس (يٰس) .. إنه آخر شخص كنَّا نتوقَّعه .

تجمَّد القبطان فى مكانه لحظة فى ذُهُول ، ثم لم يلبث أن اندفع خلف (عادل) ، وهو يهتف فى دهشة :

ـــ مَنْ هو إذن ؟.. مَنْ ؟

ولكن (عادل) كان قد اختفى فى الظلام .. اختفى تمامًا ..

* * *

١٣ ــ الحقيقة ..

ابتسم (عصام) فى هدوء ، عندما شاهد (جلال) يدلف إلى حجرته بالمستشفى ، وقال :

ــ كيف حالك يا عزيزى (جلال) ؟ كم يسعدنى أن تأتى لزيارتى !!

ابتسم (جلال) ، وهو يقول :

ــ كان من الضرورى أن أفعل يا أستاذ (عصام) ، وخاصة بعد أن أصبح الجميع يعلمون حقيقة شخصيتك .

عقد (عصام) حاجبيه ، وهو يقول فى توتُّر :

ــ شخصيتى ؟!

أجابه (جلال) فى هدوء :

ــ نعم يا أستاذ (عصام) .. لقد حضر العقيد (عادل محمود) إلى المدمّرة ، وألقى القبض على (يٰس) بتهمة الجاسوسية ، وكشف اللُّعبة كلها للجميع .

تنهَّد (عصام) فى ارتياح ، وقال :

ــ وهل استسلم (يٰس) على الفور ؟

هزَّ (جلال) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ كلَّا .. لقد قاوم ، وقفز إلى البحر ، ولكننى لحقت به ، وقاتلته فى الأعماق ، ونجحت فى إفقاده وعيه ، وصعدت به إلى السطح ، وسلَّمته إلى رجال الشرطة العسكرية .

ابتسم (عصام) ، وهو يقول :

ــ لقد فاتنى ذلك المشهد ، كان ينبغى أن .....

وفجأة بتر عبارته ، وهو يحدِّق فى (جلال) ، هاتفًا :

ــ يا إلٰهى !

بدت له ابتسامة (جلال) مخيفة ، وهو يقول :

ماذا حدث يا أستاذ (عصام) ؟.. لماذا تحدِّق فى وجهى هكذا ؟

تحشرج صوت (عصام) ، وهو يهتف :

ــ إذن فهو أنت ؟!

غمغم (جلال) فى لهجة أقرب إلى السُّخرية :

ــ أنا ؟!.. أنا ماذا يا أستاذ (عصام) ؟

هتف (عصام) فى ارتياع :

ــ أنت الجاسوس الخائن .

أطلق (جلال) ضحكة ساخرة ، وهو يقول :

ــ يا للذكاء !!.. وكيف توصَّلت إلى ذلك ؟

هتف (عصام) :

ـــ من المفروض أنك لاتجيد الغوص، وأن (يس) أكثر خبرة منك فى هذا المجال ، ولكنك هزمته فى قتال تحت سطح الماء ، وهذا يَعْنِى أنك أكثر خبرة منه ، ولكنك تخفِى ذلك لسبب ما .. لنفس السبب الذى استبعدناك من أجله ، فى حادث مقتل (أيمن) .. لقد كنت أنت .. أنت قتلته ، وأنت تظن أنه أنا .. وأنت حاولت قتلى ثلاث مرَّات .

ابتسم (جلال) فى سُخرية ، قائلًا :

ـــ يا للذكاء !

وفى هدوء ، أخرج من جيبه مِحْقنًا ، وهو يقول :

ـــ لقد كنت أخشى ذكاءك الشهير هذا ، منذ تعرَّفتك على سطح المدمِّرة يا سيِّد (عصام) .. كنت أخشى أن نجد أنفسنا فى هذا المشهد .

هتف (عصام) فى ذُعر :

ـــ ماذا ستفعل ؟

ابتسم (جلال) فى شراسة ، وهو يقترب منه ، قائلًا :

ـــ اطمئن .. إنك لن تشعر بالألم .. هذا المِحْقَن يحوِى مادة طريفة ، ستسبِّب لك انسدادًا بالقلب ، وهى مادة

بسيطة للغاية .. مجرَّد زيت طعام .. مادة دهنية صافية ، يكفِى حقنها فى أحد أوردتك لقتلك خلال ست أو سبع دقائق .

صاح (عصام) :

ـــ أيها الوغد .

انقضَّ عليه (جلال) فجأة ، وشلَّ حركته وهو يقول فى سخرية :

ـــ لاتحاول أيها الصحفى الهُمام .. إنك أضعف كثيرًا من أن تقاوم ما أنوى فعله بك ، وأنا أكره أن أترك بك أيَّة آثار للمقاومة .

حاول (عصام) أن يقاوم فى يأس ، وهو يهتف :

ـــ أيها الخائن الحقير ..

ولكن (جلال) كان على حقٍّ ..

لقد كان (عصام) أضعف كثيرًا من أن يقاوم ..

ولقد رأى الإبرة القاتلة تتجه إلى عُنقه ..

ورأى الموت على طرفها الحادّ ..

* * *

فجأة ، اقتحم العقيد (عادل محمود) الحجرة ..

اقتحمها على نحو جعله أشبه بالملاك الحارس فى عينى

(عصام) ، الذى ابتعدت إبرة المحقن عن عنقه فجأة ، ورأى (جلال) يستدير نحو (عادل) ، وينقضُّ عليه فى عُنف ، ثم رأى الاثنان يلتحمان فى شدَّة ..

ولم يَدُم الالتحام أكثر من لحظات ، فقد حاول (جلال) أن يلكم (عادل) فى فكِّه ، وفى معدته ، ولكن (عادل) تفادَى اللَّكمة الأولى بحركة بارعة من رأسه ، ومال بجسده كله جانبًا ، متفاديًا اللَّكمة الثانية ، ثم دار على عَقِبيّه فى براعة مدهشة ، ولَكَم (جلال) فى أنفه ، فحطَّمه فى صوت مسموع ، ثم لَكَمَهُ فى فكِّه ، وأطار ثلاثة من أسنانه ، وهو يهتف فى غضب :

ــ أيها الجاسوس الحقير .

وعندما ترنح (جلال) ، جاءت لكمة (عادل) الثالثة لتطيح به ، وتلقيه أرضًا ..

وأسرع (عادل) نحو (عصام) ، وهو يهتف به فى لهفة :

ــ أأنت بخير ؟

أومأ (عصام) برأسه إيجابًا فى ارتياح ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد .

ثم سأله فى اهتمام :

ــ كيف كشفت أمره ؟

ابتسم (عادل) ، وهو يقول :

ــ لقد أخطأ بإبراز مهارته فى الغوص أمامى ، فى محاولة منه للتظاهر بالوطنية والبطولة .

ارتسمت ابتسامة ارتياح على شفتى (عصام) ، وهو يقول :

ــ ولقد كشفته أنا أيضًا بالوسيلة نفسها .

ضحك (عادل) ، وهو يقول :

ــ لقد أصبحت محترفًا بحق يا (عصام) .

تنهَّد (عصام) فى ارتياح ، وهو يقول :

ــ الفضل يعود إلى (عماد) و (عُلا) ، وإليك .

أشار إليه (عادل) ، وهو يقول :

ــ بل إلى طبيعتك المقاتلة ، وإخلاصك ، وحبّك لوطنك .

غمغم (عصام) ، وقد أثلج ذلك صدره :

ــ أتظنُّ ذلك ؟

أجابه (عادل) فى حماس :

ــ بالتأكيد .

ثم ابتسم ، وهو يستطرد :

ـ ولكننى أظن أن هذه المهمَّة ستختلف تمامًا عن كل قضاياك السابقة .

سأله (عصام) فى دهشة :

ـ لماذا ؟

ابتسم (عادل) ، قائلًا :

ـ لأنه لن يمكنك نشرها .. ستكون إحدى قضاياك القادمة ، فى عالم مكافحة التجسُّس .

تهلَّلت أسارير (عصام) ، وهو يهتف :

ـ هل ستسند إلىّ مهام أخرى فيما بعد ؟

اتسعت ابتسامة (عادل) ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. ستنتظرك مجموعة من القضايا المحظور نشرها ، والتى لن تحمل أبدًا توقيعك المألوف فى صفحة الحوادث .

ابتسم (عصام) ، وهو يقول فى اعتزاز :

ـ ولكنها ستحمل فى حياتى وقلبى نفس التوقيع .. توقيع (ع × ٢) .

* * *

[تمت بحمد الله]

مغامرات ٤ × ٢

سلسلة القصص بوليسية مثيرة للشباب تنشط العقل وتنمى الفكر والذكاء..

المؤلف

د. نبيل فاروق

قضية الغواصة المحترقة

- غوّاصة حربية اشتعلت فجأة ، فى ميناء (رأس التين) الحربى فى (الإسكندرية) ، وهناك أدلّة قاطعة على وجود جاسوس ، بين خمسة مشتبه فيهم ضمن طاقمها ..
- من يكون ؟.. ولماذا أقدم على فعلته ؟
- قضية جديدة تواجه (عصام كامل) و (عادل محمود).
- تُرَى .. ماذا يفعلان فى مواجهة ذلك الجاسوس الغامض ؛ لحل قضية (الغوّاصة المحترقة) ؟.

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع الجلاء سلك بالعباسية - القاهرة - ت ٤٨٥٠٩٠٩

العدد القادم

(قضية أخطر العملاء)

الثمن فى مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم